اقرأ

حسن رشاد

١٩٥

محكمة الضمير



دار المعارف بمصر

محكمة الضمير

حسن رشاد

محكمة الضمير

اقرأ ١٩٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٩٥ – مارس سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

الفصل الأول

نهضت « ليلى » من نومها مع الفجر وبدأت بما تعودت أن تبدأ به كل صباح فكنست حجرات المسكن وغسلت الأطباق والآنية ثم أعدت مائدة الإفطار لأبيها وامرأته وأخواتها الصغار ، وبعد أن فرغت من ذلك حيتهم ومضت إلى مدرستها الثانوية فلقيت أترابها وشاركتهن فى الجد والهزل بعض الوقت ثم تركتهن وانهمكت مع فرقة التمثيل بالمدرسة فى الاستعداد للحفل التمثيلى الذى إعتادت المدرسة أن تقدمه كل عام ، وكانت المدرسة قائمة قاعدة فى ذلك اليوم ، فقد دعى إليها عدد من صفوة أولياء الأمور من بينهم نفر له خطر ومكانة بين الناس .

وكانت « ليلى » كاعباً من تلكم الصبايا الفاتنات اللائى ينشأن كالأزهار البرية فى أسر صغار الموظفين الكادحين ، وكان أبوها قبل وفاة أمها رجلا طيب القلب ، رضى الخلق لا يحب إنساناً فى الوجود كما يحب ابنته الوحيدة ليلى ، فلما ماتت أمها حاول أن يفرغ لابنته الطفلة ويقوم على تربيتها

بنفسه ولكنه لم يستطع لأن ظروف حياته لم تمكنه من أن يعمل لكسب الرزق وأن يفرغ لابنته فى وقت واحد فاضطر إلى أن يتخذ لنفسه امرأة تربى له ابنته وتهب له غيرها من البنين والبنات ، وأظهرت المرأة حباً لليلى وعطفاً عليها فى أول الأمر ، ولكنها ما كادت ترزق ببناتها حتى ضاقت بليلى وظهرت على حقيقتها فإذا هى امرأة منكرة الخلق ، سيئة العشرة ، غليظة القلب ، سليطة اللسان ، بذلت كل ما تستطيع من حيلة ومكر حتى ملأت قلب زوجها بغضاً لليلى ، ونفوراً منها ، وقسوة عليها ، وشقيت ليلى بسبب ذلك كل الشقاء وصارت تتحرق شوقاً إلى وسيلة تخرجها من حياتها البغيضة مع امرأة أبيها ، وتخلصها من صنوف العذاب التى كان يصبها عليها أبوها ، وتتيح لها الزواج من شاب ثرى مرموق المكانة يبدل شقاءها سعادة ، وعناءها راحة ، وبؤسها ترفاً ونعيماً .

وكانت ليلى فى الثامنة عشرة من عمرها تمتاز من أخواتها من أبيها بوجه سمح رائع الجمال ، وجسم فاتن متقن الصنع ، وأنوثة ناضجة تفتن العيون والقلوب ، وكان وجهها الصبوح المشرق يفقد أحياناً بعض إشراقه كلما فكرت فيما آل إليه أمرها ولكن هذا الحزن لم يكن ليفسد شيئاً من جمالها وإنما كان

يزيدها إلى النفوس حباً ، ويزيد منزلتها فى القلوب حسناً .

ولم تكن المسرحية التى رشحت ليلى لتقوم بدور البطولة فيها فى ذلك اليوم مسرحية بسيطة وإنما كانت مسرحية من تلك المسرحيات الطويلة الجادة التى تحتاج إلى جهود ومواهب فذة أصيلة .

ولم تكد ليلى تظهر على المسرح وتمضى فى التمثيل حتى استأثرت بانتباه الجميع ، كان صوتها الرخص العذب صافياً جلياً ينبعث من القلب دون تصنع ، وكان وجهها الجميل النقى المشرق رائعاً معبراً يظهر فيه الحب والقلق والسخرية فى لحظة واحدة ، وكانت عيناها السوداوان الواسعتان تشعان نوراً يلذكل ما فى الإنسان من ملكات الحس والتفكير والشعور. ولم يكد ينتهى الفصل الأول حتى تبدت الدهشة على ملامح الحاضرين وهفت قلوبهم لجمال ليلى وروعة أدائها ، أما هى فلم تكد تسمع كلمات الإطراء وتلمح ما تبدى على الوجوه من مظاهر العجب والإعجاب حتى تملكتها نشوة بالغة وامتلأ قلبها فرحاً وسروراً ، وراحت تسائل نفسها « ترى هل حانت الفرصة التى طالما انتظرتها الأيام والليالى » .

وعندما انتهت الحفلة وتركت ليلى المسرح أحاط بها عدد كبير من الحاضرين وراحوا يهنئونها ويثنون عليها ويمتدحون

براعتها فى التمثيل . وكان من بينهم شاب ما إن نظرت إلى شخصه حتى خفق قلبها ، وما إن سمعت صوته حتى فتنت به أشد افتتان . كان شاباً فى الثامنة والثلاثين طويل القامة ، رزين المظهر ، سمح الوجه ، عميق الصوت ، جذاب الحديث ، منطلق اللسان ، وكان كثير من الحاضرين يرفعون اليه أبصارهم بألوان من الغبطة والإعجاب والتقدير رغم مظاهر البساطة المرتسمة على سيمائه وحركاته ، وقد استرعى ذلك كله نظر ليلى فوقفت تتأمله ملياً ، ثم تذكرت أنها رأته من قبل وظلت وهلة لا تستطيع تذكر ظروف رؤيتها له ، ثم تذكرت فجأة أنها لم تره وإنما رأت صورته فى الصحف والمجلات وأنه الصحفى والروائى الذائع الصيت « نبيه المنفلوطى » فالتفتت إليه وفى عينيها نظرات الاهتمام والإعجاب ، ولما رأى الشاب انتباه ليلى إليه تقدم منها وقال لها فى حبور :

— دعينى أهنئك مرة أخرى يا ليلى ، إنى لم أكن أتوقع أن طالبة فى مثل سنك تبدع هذا الإبداع ، فأنى لك ذلك ؟ .

فقالت فى جذل :

— هذا تقدير عظيم اعتز به يا أستاذ نبيه . .

فقال وهو يمعن النظر فى وجهها الفاتن الجميل :

ــ أنا أتنبأ لك بمستقبل باهر فى التمثيل إذا واظبت على التمرين .

وقبل أن تجيبه اقتربت منها إحدى المدرسات وهمست فى أذنها قائلة

ــ تعالى يا ليلى ، سأقدمك الآن إلى شخصية عظيمة . .

فسألتها فى لهفة ــ من ؟ . .

ــ فاطمة هانم علوان . .

ــ فاطمة هانم علوان ؟ ! . .

ــ نعم ، ألا تعرفينها ؟ . .

ــ كلا ، من تكون ؟ . . .

ــ إنها رئيسة جمعية حواء الجديدة ، وهى تريد محادثتك على انفراد ، هلم معى . .

واصطحبتها إلى ركن فى القاعة ثم تركتها وانصرفت وبعد لحظة أقبلت على المكان سيدة أنيقة المظهر ما إن رأت ليلى حتى هشت لها قائلة :

ــ أهلا ليلى ، أحسبك لا تعرفيننى ، أنا فاطمة علوان رئيسة جمعية حواء الجديدة . .

فابتسمت ليلى وقالت فى إكبار :

ـ لى عظيم الشرف بلقائك يا سيدتى . .

ـ لقد أرسلت إليك لأهنئك ، الحق أنك كنت رائعة جداً يا ليلى . .

فأطرقت ليلى خجلا وقالت :

ـ أشكرك على هذا التقدير . .

فنظرت إليها المرأة فى اهتمام وقالت :

ـ ألم تفكرى فى استغلال موهبتك الفذة يا ليلى . .

ـ كلا ، إننى لم أفكر فى ذلك مطلقاً . .

ـ إن فى وسعك أن تصبحى ممثلة سينمائية عظيمة إذا تعهدك مخرج قدير . .

فقالت ليلى فى حماسة وانفعال شديدين :

ـ أحقاً تقولين ! ! هل بوسعى أن أصبح ممثلة سينمائية ؟

ـ بكل تأكيد وعندئذ سترقين درجات الشهرة وتغدو الدنيا كلها عند قدميك .

فقفز قلب ليلى بين جوانحه وقالت وهى تحلق بفكرها بعيداً عن المكان .

ـ وماذا على أن أصنع كى أصبح ممثلة سينمائية ؟ إننى لا أعرف أحداً من المشتغلين بالسينما . .

ـ أنا أعرف كثيرين منهم ، وأعتقد أن أجدرهم بتعهدك هو « حسين بك شكرى » مدير شركة الأفلام الشرقية ولا شك أنه سيسر كثيراً بمعرفتك . .

ـ إن ذلك يسرنى كل السرور ولكن كيف يمكن لفتاة مثلى أن تقابله بسهولة ؟ . .

فأخرجت المرأة بطاقة من حقيبتها وخطت عليها بضع كلمات ثم ناولتها إياها وهى تقول :

ـ هاك توصية منى ، فاذهبى إليه واطلبى مقابلته فى مقر شركته بالزمالك . .

فأخذت ليلى البطاقة فى لهفة وقالت وهى تدسها فى صدرها :

ـ لست أدرى كيف أشكرك على هذا الصنيع . .

ـ لا شكر على واجب يا ليلى ، إن فتاة موهوبة مثلك جديرة بكل تشجيع وعشمى أن تبلغى مرادك على يد شكرى بك فى أقصر وقت . .

فقالت ليلى فى حماس :

ـ ثقى أننى سأبذل كل ما بوسعى لكسب ثقته . .

ـ لست أشك فى ذلك ، وداعاً يا ليلى . .

ـ وداعاً يا سيدتى . .

وخرجت ليلى من الحجرة مسرورة محبورة وقد قررت بينها وبين نفسها أن تحتفظ ببطاقة التوصية فى صدرها بصفة دائمة ، وأن تخفى أمرها على الناس جميعاً حتى لا يثبط همتها أحد وحتى لا يتسرب خبرها إلى والدها وامرأته الحقود فينالها منهما سوء .

وقضت ليلى وقتاً مع زميلاتها فى المدرسة وهى تحلم بالقصور ذات الأبهاء الواسعة ، والصالونات المعطرة ، والتحف النادرة ، والموائد الفاخرة التى تقدم عليها صنوف الطعام الشهية المتعددة الألوان . وبعد نصف ساعة غادرت ليلى المدرسة فرحة مبتهجة وقد امتلأت نفسها رضا وامتلأ قلبها أملا وسعادة ، وفيما هى تهبط درجات السلم الخارجى للمدرسة لمحت الأستاذ نبيه يسير فى الطريق بقامته الطويلة التى تملأ العين فوقفت لحظة مترددة تنظر صوبه وقد اتقدت وجنتاها ثم أسرعت نحوه حتى دانته من خلفه ونادته :

— أستاذ نبيه . .

فالتفت إلى الوراء وما إن رآها أمامه حتى توقف بغتة وهتف فى حبور :

— ليلى ! ! أهلا وسهلا . .

فحيته بابتسامة رقيقة وقالت فى استحياء وارتباك :

ــ أرجو أن تغفر لى جرأتى ، إنها أول مرة فى حياتى أجرؤ فيها على مخاطبة رجل فى الطريق ، فمعذرة .

فقال وهو يحدق فى وجهها الجميل :

ــ لا ضير فى ذلك يا ليلى ، إن ذلك يسرنى كل السرور ...

ــ أظنك ذاهب إلى عملك فى الجريدة . .

ــ كلا ، أنا ذاهب لأسجل قصة فى الإذاعة ؟ . .

ــ قصة !! ما موضوعها ؟ . .

ــ موضوعها باختصار أن المرأة تعجب بالرجل الفقير وتتفانى فى حبه ولكنها تكره الزوج الغنى البخيل وتحتقره وإذا تسلل الاحتقار إلى العلاقات الزوجية انهارت المثل العليا التى يعتمد عليها الزواج . .

ــ موضوع طريف ، وبهذه المناسبة أتسمح لى أن أسألك سؤالا يتعلق برواياتك ؟ . .

ــ بكل سرور . .

ــ أتؤمن حقا بما تكتب ؟ . .

فأدهشه كلامها وقال :

ــ إيمانى بوجودى ، لماذا تسألين هذا السؤال ؟ . . .

ــ لأن أغلب رواياتك التى قرأتها يغلب عليها طابع البؤس والشقاء مع أنك أبعد الناس عن البؤس والشقاء . .

ــ ومن قال لك ذلك ؟ . .

ــ إننى أعرف مكانتك بين الناس كما أعرف أنك تملك ثروة طائلة .

ــ وهل الثروة هى كل شىء يا ليلى . .

ــ هذا هو اعتقادى . .

ــ يظهر أنك قليلة الخبرة بشئون الحياة . .

ــ بالعكس ، إننى كبنت من بنات الشعب أعرف عن الدنيا أشياء كثيرة .

ــ آه ، وماذا تعرفين عن الدنيا ؟ . .

ــ أعرف أنها مليئة بالمفارقات والمتناقضات ، كما أعرف جيداً حياة البؤس والشقاء التى يحياها أغلب الناس فى العهد الإقطاعى الأسود الذى نعيش فيه ، ولذلك ترانى أضيق جدا بما يكتبه الكتاب المترفون عندما يتحدثون عن بؤس البائسين وعذاب المحرومين . .

فأجابها فى هدوء :

ــ هذا حق يا ليلى ، وما دمت أثرت الأمر على هذه الصورة فيجمل بى أن أصارحك بأننى نشأت فى أسرة فقيرة

عاشت فى البؤس والشقاء والحرمان زمناً طويلا ولكنى لم أيأس وإنما اقتحمت الحياة واقتحمت المعرفة حتى أصبحت شيئاً مذكوراً ، وقد هيأ لى ذلك أن أدرس الحياة الإنسانية على حقيقتها ، وأختزن فى ضميرى ذكريات عديدة هى التى أصوغ منها رواياتى وأحاديثى . .

وسكت لحظة ثم استأنف يقول :

ـ والآن دعينى أسمع رأيك بصراحة . .

ـ رأيى فى ماذا ؟

ـ فى بعض الروايات المصرية التى قرأتها لى ولغيرى أخيراً .

ـ رأيى أن أكثر الروايات التى قرأتها لغيرك بضاعة لا فن فيها ولا مغزى لها ، كل صفحاتها وصف متبذل لأحط ما تفعله الغرائز بين الجنسين وهذا أمر هين يمكن لأى إنسان أن يفعله حتى لو لم يكن أديباً وأعتقد أن رواد المقاهى يستطيعون أن يأتوا بأدق من هذا وأروع دون أى عناء ، أما عن رواياتك فهى فى جملتها هادفة ومؤثرة ومثيرة ومن الممكن أن تقع حوادثها فى كل زمان ومكان ولكن بعضها لا يخلو من المبالغة فأنت مثلا فى قصة « سلوى » تجحد الطلاق وتبيح للزوج أن يتسامح حتى ولو كانت هناك خطيئة . .

فقال بصوت تغيرت نبراته وهو يملأ عينيه من منظرها الفاتن البديع :

ـ آه ، ولكن لا تنسى أن بطلة القصة لم تتورط فى الإثم بإرادتها ، وكان زوجها يحبها وكانت هى تحبه حقا ، وقد وقعت الخطيئة قبل زواجها لا بعده ، والأمر بعد هذا كله فوق الخطأ والصواب لأنه يتعلق بالحب والاثنان كما لا شك تذكرين كانا يحرصان على هذه الصلة حرصهما على الحياة . .

فابتسمت ليلى ورنت إليه رنوة جذابة وقالت :

ـ أنها على كل حال قصة مؤثرة للغاية ، والآن لا أحب أن أطيل عليك ، آن لى أن أنصرف . .

فنظر إليها مستعطفاً وقال :

ـ ولم العجلة ، أيضايقك أن تمكثى قليلا ؟ . .

ـ إن ذلك يسرنى كل السرور ولكنى لا أستطيع أن أمكث أكثر من ذلك . .

ونظرت إلى ساعتها ثم نظرت حولها فى قلق كأنها تخشى عيون الرقباء وقالت فى شيء من الخوف :

ـ معذرة ، لقد تأخرت كثيراً ، يجب أن أنصرف على الفور . .

فقال عاجباً وهو يتأمل سيماء الخوف المفاجئ الذى ارتسم على وجهها :

ــ ما هذا الخوف يا ليلى . ماذا تخشين . .

ــ أخشى أن يرانا أحد من معارف زوجة أبى .

ــ زوجة أبيك ! . .

ــ نعم . . .

ــ وهل تخشينها إلى هذا الحد . .

فقالت فى صوت تغلب عليه الرهبة :

ــ نعم ، إنها شيطان فى صورة امرأة . .

ــ شيطان فى صورة امرأة ، يا للغرابة ، هل أستطيع أن أعرف عنها شيئاً .

فقالت وقد ازداد وجهها امتقاعاً :

ــ لا . . لا داعى لذلك ، إننى أفقد وعيى إذا تحدثت عنها . .

فقال وهو يرقب ملامحها المكفهرة :

ــ إننى طبعاً لا أحب أن أتدخل فى شئونك الخاصة ، ولكنى أرجو ألا تؤاخذينى إن فعلت ، فقد أذهلنى تغيرك المفاجئ ، وإذا كان يضايقك أن تفسرى لى السبب الحقيقى

لخوفك فلا داعى ، ولكنى أرجو فقط أن تخبرينى كيف يمكننى مساعدتك . .

فقالت وهى تتحرك فى مكانها بقلق :

ــ أشكرك . . . أشكرك . .

ــ لا . . لا يا ليلى ، يجب أن تفضى إلى بما يشقيك لعلى أستطيع أن أخففه عنك أو أحتال معك على صرفه . .

فقالت وهى تنظر إليه نظرة فيها من توسلات الخوف والحزن ما هز قلبه :

ــ لا أستطيع أن أقول لك الآن شيئاً ، ولكنى أعدك بأن أكاتبك إذا احتجت يوماً إلى نصحيتك ، وداعاً يا أستاذ نبيه .

فأمسك بيدها وقال وهو يردق وجهها وقد امتلأ قلبه عطفاً وحبا وشجناً :

ــ هل لى أن أعترف قبل أن تنصرفى أن سعادتك ستصبح منذ اليوم شغلى الشاغل ، وأننى إذا استطعت يوماً أن أحقق لك فى الحياة مطلباً فسوف أعتبر ذلك اليوم من أسعد أيام حياتى ، فهل تعدينى حقا بأن تخبرينى بكل ما قد يصادفك فى الحياة من متاعب قبل أن نفترق ؟ . .

فقالت فى صوت متهدج :

١٩

— أشكرك وأعدك بأن تكون أول من ألجأ إليه إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك . .

وبعد نظرة وداع نمت على ما يكنه كل منهما لصاحبه من عطف وحب وإعزاز سحبت يدها من يده وانصرفت على عجل ، ووقف ينظر إليها حتى توارت عن نظره وعندئذ تحرك من مكانه ومضى فى طريقه وقد بلغ منه الوجد واضطرم قلبه اضطراماً .

الفصل الثانى

وبلغت ليلى دارها بعد نصف ساعة ولم تكد تنسل من الباب حتى استقبلتها زوجة أبيها بنظرة أحد من النصل ثم نظرت إلى زوجها ثم ردت النظر إلى ليلى وقالت فى صوت كالفحيح :

— أراك عدت متأخرة ، أين كنت ؟ . .

فأجابتها وقد فر لونها :

— كنت فى المدرسة . .

فارتفع صوت أبيها من ركن القاعة قائلا فى نبرة منذرة مخيفة :

— وإلى أين ذهبت بعد خروجك من المدرسة ؟ وماذا كنت تصنعين فى الشارع ؟

وكانت ليلى تسمع كلام أبيها مرفوعة الرأس فى أول الأمر ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة كأنما عجز جسمها عن حمله ، ولبثت صامتة لا تقول شيئاً ، جامدة لا تأتى حركة ، فأعاد أبوها السؤال مرة أخرى ولما لم يظفر منها بجواب جن جنونه وقال فى صوت بشع :

ــ أيتها اللعينة ، ستخبرينني أين ذهبت ، ومع من كنت تتحدثين فى الشارع ، لقد رآك الناس وأخبرونى بكل شىء . .

ثم مال جانباً وتناول عصا كانت بالقرب منه وأسرع نحوها وهو يقول مزمجراً :

ــ من هذا الشاب ؟ وماذا كنت تصنعين معه ؟ . .

فلاذت بالصمت ووقفت تنظر إليه فى رعب شديد ، وهيجه سكوتها فانقض عليها وجذبها من شعرها وراح يضربها بالعصا بقسوة جنونية حتى سال الدم من وجهها وجسمها ، واستمر يضرب ويضرب وهى تبكى وتشهق حتى انفجر صوتها فى صيحة مروعة :

ــ أتوسل إليك . . . ارحمنى . .

ولكنه لم يبال بصيحتها وظل يضربها ويركلها حتى سقطت على الأرض وهى تتلوى من الألم فانحنى عليها وضغط باحدى يديه على فمها وباليد الأخرى على عنقها وهو يصيح :

ــ سأقتلك ، الموت ولا العار . .

ولما أدركت ليلى أنه الموت جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من قبضته واستوت جالسة وقالت بصوت مختنق :

ــ أقسم لك أننى لم أفعل شيئاً ، أقسم لك أننى لم أقابله

إلا هذه المرة . .

فقال بصوت كالرعد :

ــ إذن فقد قابلته يا فاجرة ، ياللفضيحة ، يا للعار . .

وارتفع صوت امرأته على الأثر قائلة :

ــ هذا جزاء تساهلك ، ألم أتنبأ لك بكل هذا ، ألم أقل لك أن مثلها لا ينبغى أن تذهب إلى المدرسة ، كيف تكون الحال إذا عرف معارفنا ما حدث ، فكر فى بناتى ومستقبلهن وسمعتهن التى تسعى هذه المجرمة إلى تلويثها ، لم يعد ينقصنا إلا الفضايح يا وش الفضايح . .

فقال الرجل وهو يهتز من الغضب :

ــ إنها لن تذهب إلى المدرسة بعد اليوم ، أمسكيها فى المنزل ، والويل لها إذا خرجت دون إذنى . .

فقالت المرأة وهى ترمق وجه ليلى بنظرة صفراء مميتة :

ــ كن مطمئناً ، إن عينى لن تغفل عنها لحظة واحدة . .

ونهضت ليلى على أثر ذلك وهى تبكى وتتوجع من شدة ما أصابها بينما كانت أخواتها من أبيها يتواثبن حولها ويصحن بها وكل منهن تقذفها بكلمة سباب أو ترميها بنظرة خبيثة ملؤها الشماتة والسخرية .

ومن ذلك اليوم ظلت ليلى حبيسة الدار لا ترى الدنيا إلا من خلال نافذة المطبخ ، وكانت الدنيا التى تبدو أمامها دائماً من خلال هذه النافذة عبارة عن منزل متواضع بأسفله ثلاثة دكاكين يتكأكأ أمامها الناس ومقهى بلدى يرتفع منه الصخب والصياح والشجار إلى ساعة متأخرة من الليل ، وفى هذا المنزل كانت تعيش أرملة غريبة الأطوار تدعى « نفيسة » ترك لها زوجها قبل وفاته هذا المنزل وترك لها ابناً نحيلا ضئيلا يدعى « صابر » ، وقد طمعت نفيسة أن ترفع منزلة ابنها عن المستوى الذى قدر لأمثاله فى الحياة فلم تكتف بتعليمه بالمدرسة الثانوية وإنما أرسلته إلى الجامعة ليسلك طريقاً جديدة غير الطريق التى سلكها أبوه وأقاربه من قبله ، وضحت نفيسة فى سبيل ذلك بكل ما كانت تدخره من مال وحلى ولكن حظ ابنها كان سيئاً فلم يصب فى الجامعة نجاحاً ولما تكرر رسوبه اضطرت إلى إخراجه من الجامعة وسعت حتى ألحقته بوظيفة كتابية بوزارة الأوقاف .

وكان « صابر » شاباً خجولا فى السادسة والعشرين من عمره يحب الانطواء على نفسه ، علمته أمه منذ الصغر أن الحياة سلسلة من التضحيات المتصلة بين الأبناء والأمهات ،

فالأم يجب أن تضحى بصحتها وراحتها ومالها فى سبيل ابنها ، والابن يجب أن يضحى بنفسه وآماله وعواطفه فى سبيل أمه ، لذلك نشأ وهو يشعر بأنه لم يخلق إلا لأمه وإن مخالفتها جرم لا يعدله جرم . وكانت نفيسة امرأة قوية محبة لنفسها إلى أبعد حدود حب النفس ، أرادت ألا يشاركها فى ابنها أحد فبذلت كل ما تستطيع من قوة لتجعل تفكيره فى الزواج أمراً مستحيلا ، وبذلت كل ما تستطيع من مكر لتملأه ريبة وخوفاً وتوجساً من النساء ، وتوسلت لذلك بكل وسيلة فقطعت صلتها بالناس لا تحفل بهم إلا بقدر ما يصيبها من خير ، وما يحققونه لها من نفع فإذا قضت منهم حاجتها أسرعت إلى بيتها واعتزلت الناس حتى لا يطمع فى ابنها طامع .

ولم يحاول صابر الانحراف عما رسمته له أمه ، فاعتزل دوم الآخر الناس ولم يحاول قط الاتصال بالجيران إلا حين كانت الضرورة القصوى تضطره إلى ذلك اضطراراً فقد كان يحتاج أحياناً إلى أن يتصل بوالد ليلى ليلتمس معونته فى تحصيل إيجار الدكاكين والمقهى إذا أبطأ أصحابها فى الدفع ، وكانت أمه تذهب أحياناً إلى دار ليلى لتلتمس معونة زوجة أبيها فى خياطة ثيابها التى كانت تشتريها فى المواسم والأعياد . وكان

صابر يلتقى أحياناً بليلى أثناء ذهابها إلى المدرسة فى الصباح أو أثناء عودتها منها بعد الظهر ولكنه لم يحاول مرة من المرات أن يكلمها أو يرفع بصره إليها ، وكانت هى الأخرى تراه أحياناً ولكنها لم تكن تهتم به أو تعيره التفاتاً لا لقلة وسامته وقصر قامته فحسب بل وأيضاً لما كانت تعلمه من ضعف شخصيته وضعف إرادته وخضوعه المطلق لأمه فى كل أمر جل أو هان .

وذات يوم بينما كان عائداً من عمله — وكان ذلك قبل حادثة حفلة التمثيل بأسبوع — رأى ليلى تسير فى الطريق فى ارتباك وهى تتلفت كمن تبحث عن منقذ ينقذها ثم رأى وراءها شابا ضخم الجسم يجد فى أثرها ويطاردها مطاردة وقحة ، وسمع ليلى تصرخ فى الشاب فى غضب :

— ألا تستحى ، اذهب وإلا ناديت العسكرى . .

ولكن الشاب لم يبال بتهديدها وواصل مغازلتها فى قحة ممجوجة ، فغلى الدم فى عروق صابر ودخله انفعال غريب هز كيانه هزا عنيفاً لم يشعر بمثله من قبل ، ووقف مكانه لحظة متردداً وقد أخذته الدهشة من هذا الإحساس الذى انتفض له قلبه وتلك العاطفة التى رجته رجا ، وخيل إليه

وهو واقف فى مكانه أنه يرى ليلى لأول مرة ، وعلى حين بغتة تحرك من مكانه واندفع مسرعاً نحو الشاب وصاح فيه بغضب .

ــ ألا تخجل من نفسك، دع الآنسة وشأنها . .

فنظر إليه الشاب باحتقار محاولا المبالغة فى الازدراء به بالنظر إليه من فوق كتفه كأنما يتفحص حشرة تافهة وقال فى استخفاف وبرود :

ــ وما شأنك بها . .

ــ قلت لك دعها وانصرف . .

فأجابه فى تحد ساخر :

ــ وإذا لم أنصرف . .

ــ إذا لم تنصرف فأنت الجانى على نفسك . .

فقال الآخر مزمجراً :

ــ ما شاء الله ، أتهددنى أيها القزم الحقير ، اذهب من أمامى قبل أن أنكل بوجهك . .

فارتعد صابر من منظره ولكنه شعر بأن الهلاك أهون من التراجع أمام ليلى التى كانت تنظر إليهما وهى ترتجف ، واستجمع صابر أطراف شجاعته وصاح به :

ــ أتسبنى يا قايل الأدب . .

فصاح الآخر وهو يتحفز للهجوم عليه :

ـ أنا قليل الأدب يا جبان . .

وهنا أسرعت ليلى لنجدة صابر وقالت وهى تجذبه من ذراعه :

ـ لا داعى للشجار ، هلم معى . .

ولم تكد تنتهى من عبارتها حتى جن جنون الشاب فانقض على صابر وضربه ضربة قوية فى صدره ثم أمسكه من سترته وأخذ يشبعه ضرباً وركلا حتى سقط على الأرض وفى غمضة عين استدار وفر هارباً .

ونهض صابر بعد لحظة وهو ينظف ثيابه فاقتربت منه ليلى وقالت له فى ألم :

ـ هل أصابك سوء ؟ أنا آسفة جدا لما حدث . .

فرفع إليها عينيه ثم خفضهما فى خجل وبدا كأنه يهم بالكلام ولكنه لم يتكلم ووقف لا يدرى كيف يتصرف ، فدنت منه وحاولت أن تنظف له ثيابه ولكنه تراجع إلى الوراء حتى لا تصل إليه يدها وقال مرتبكاً وهو يزدرد ريقه :

ـ أشكرك ، أشكرك . .

ثم دار على عقبيه بغتة ومضى مهرولا كأنه يفر فراراً .

ووقفت تنظر فى أعقابه مدهوشة بضع لحظات ثم مضت فى طريقها مسرعة إلى المنزل .

الفصل الثالث

وعندما بلغ صابر منزله ورأته أمه ارتاعت لمنظره ارتياعاً شديداً وسألته فى جزع :

ــ ما بلك يا صابر ؟ ماذا حدث ؟ . .

فتردد لحظة ثم قال متلعثماً :

ــ لا شيء يا أمى ، لا شيء . .

ــ ما معنى هذا ؟ أتخفى عنى ما باك ؟ . .

فقال وهو يفرك يديه من شدة الحيرة والارتباك :

ــ لست أخفى عنك شيئاً يا أمى ، ولكنها مشادة وقعت بينى وبين شاب لا أعرفه . .

ــ مشادة ! ! ولماذا ؟ . .

فقال وهو يزدرد ريقه :

ــ رأيته يتعقب ليلى فتشاجرت معه . .

فدقت المرأة صدرها فى عصبية وصاحت :

ــ ليلى ! ! ليلى بنت الجيران ؟ . .

ــ نعم يا أمى .

فقالت فى غضب واستنكار :

ـ أتتشاجر من أجل فتاة مستهترة مثل ايلى ، ياخيبة أملى فيك . .

فقال وهو يجفف العرق المتصبب على جبينه :

ـ معذرة يا أمى ، لم يكن فى نيتى أن أتدخل ولكنى تورطت فى الأمر بالرغم منى . .

ـ إذن فقد ورطتك المجرمة ، الويل لها ، لن أسكت على هذا أبداً ، أنا ذاهبة إليها . .

فقال متلعثماً :

ـ ولماذا تذهبين إليها يا أمى ؟ . .

ـ لأوقفها عند حدها . .

فقال ضارعاً :

ـ ولكنها لم تفعل شيئاً ، أقسم لك أنها لم تفعل شيئاً على الإطلاق .

فصاحت فى غضب :

ـ كفى دفاعاً عنها ، أنا ذاهبة ، سأعرف كيف أؤدبها ، الملعونة ، المجرمة ، قليلة الأدب .

واندفعت مهرولة إلى الخارج وهى تهدد وتتوعد وتهدر

بأقذع أنواع السباب .

واستلقى صابر على مقعده بعد خروجها واستغرق فى التفكير وفيما هو سابح فى أفكاره سمع صرخة مدوية تنبعث من دار ليلى فخفق قلبه خفقة عنيفة وانتفض واقفاً وأسرع ناحية النافذة المطلة على منزل ليلى وراح يطوف بنظراته هنا وهناك وفجأة تسمرت نظراته على مشهد بشع ارتعد له بدنه ذلك أنه رأى ليلى طريحة على الأرض تنزف دماً وهى تتاوى تحت وقع ضربات أبيها بينما كان يحيط بهما زوجة الرجل وبناته وأمه نفيسة وقد أشرقت وجوههن جميعاً بفرح وحشى بغيض . وبعد لحظات ارتد صابر إلى مجلسه فزعاً مذعوراً من هول المنظر وراح يسائل نفسه :

ــ ما ذنبها ، ماذا جنت حتى تعاقب هذا العقاب ، يا لها من فتاة مسكينة . .

وتواردت عليه الخواطر والصور ولم يتنبه إلى نفسه إلا حين أقبلت عليه أمه وقالت له وفى عينيها بريق الشماتة والانتصار :

ــ الآن تستطيع أن تطمئن ، إنها لن تجسر على اعتراض طريقك بعد اليوم . .

فرفع حاجبيه مستنكراً وقال فى شىء من الغضب :

ــ وهل قلت لك إنها اعترضت طريقى ، شد ما ظلمتم الفتاة المسكينة . .

فوجمت أمه لكلامه وقالت فى حدة :

ــ ما هذا الكلام ، كيف تتكلم هكذا أمامى . .

ــ لست أحب أن أغضبك يا أمى ، ولكنى لا أحب أن تظلمى أحداً . .

فقالت وهى تكظم غيظها الفائر :

ــ إننى لم أظلمها ، إننى أعرفها على حقيقتها كما يعرفها أبوها ، إنها فتاة شريرة مستهترة ومن الواجب أن تعامل بالشدة حتى تثوب إلى رشدها وإلا انزلقت إلى الهاوية .

ــ أتعتقدين يا أمى أنها رديئة إلى هذا الحد ؟ . .

ــ أنها أردأ فتاة رأيتها فى حياتى ، ومن الخير ألا تفكر فيها أو تشغل نفسك بأمر من أمورها بعد اليوم . .

ــ كما تشائين يا أمى . .

ثم كان يوم حفلة التمثيل الذى ضربت فيه ليلى ضرباً مبرحاً بسبب مقابلاتها للأستاذ نبيه ، وكان صابر فى ذلك الوقت خارج منزله فلما عاد أسرعت إليه أمه وأخبرته فى شماتة بما وقع من ليلى وما انتهى إليه أمرها ، فتلقى صابر النبأ فى صمت

ثم قطع الصمت بصوت مضطرب قائلا :

ـــ دعينا يا أمي من هذه الأمور التي تثير الأسف وانخض في حديث آخر . .

فقالت في غبطة :

ـــ لعلك أدركت الآن أي فتاة هي . .

ـــ وما شأني بها ، إن أمرها لا يعنيني ، فانكف عن الكلام عنها من الآن . .

ـــ حسناً ، ولنشكر الله على أنني أنقذتك منها في الوقت المناسب . .

ولكن « صابر » لم يستطع أن ينسى ليلى فقد أحس أن في الفتاة شيئاً غريباً يجتذبه إليها ، وعاش أيامه وهو يغالب الشوق إليها فينتصر عليه حيناً وينهزم أمامه حيناً ، وكان أشد ما عذبه وأرقه حديث ذلك الشاب المجهول الذي قالوا إنها شوهدت معه في موقف فاضح بعد حفلة التمثيل ، وخطر له ذات يوم أن يتصل بليلى ليقف منها على جلية الأمر فصعد إلى غرفة بأعلى السطح اعتاد أن يلجأ إليها كلما أراد القراءة أو الانفراد بنفسه وراح يراقب سطح منزل ليلى من وراء مصراع النافذة وهو يقلب في فكره التهمة الأثيمة التي وجهوها إلى ليلى وماذا يكون موقفه منها إذا ثبت أنها تقوم على أساس من الحقيقة

ولم تمض لحظات حتى لمح ليلى تصعد إلى السطح لغسل ثياب الأسرة ، وكان ضوء النهار ما زال قويا فدق قلب صابر دقات سريعة حين شاهد لون وجهها فقد كان شديد الامتقاع إلى درجة تثير الخوف ، ووقف ينظر إليها وإلى وجنتيها البارزتين وعينيها الغائرتين بتأثر بالغ كاد يدفع الدموع إلى عينيه ، وانتظر حتى غسلت متسخ الخرق والثياب وأخذت فى نشرها وحينئذ حرك مصراع النافذة قليلا وناداها بصوت خافت ولكنها لم تسمعه فأعاد النداء فى حذر فالتفتت إليه فى خوف شديد دون أن تنبس بكلمة فخاطبها قائلا :

ـ لا تخافى يا ليلى فلست أريد إلا الخير . .

فقالت فى جفاء وهى تنظر حولها بقلق :

ـ ماذا تريد ؟ . .

فقال وهو يتنهد :

ـ لا تؤاخذينى يا ليلى ، إننى حزين يكاد الحزن يقتلنى . .

ـ وماذا يحزنك ؟ . .

ـ يحزننى أن أمى تسببت فى إيذائك بغير حق . .

فقالت فى صوت حافل بالألم :

ــ ولماذا تحزن ، ألست أنت الذى قلت لها ما أشاعته عنى ؟.

ــ أنا لم أقل لها شيئاً ينقص أو يزيد عما حدث أثناء المشاجرة ، أقالت لكم شيئاً آخر ؟ . .

ــ نعم ، قالت إننى أعاكسك وأغازلك وأنها تخاف عليك من شرى . .

فاعترته هزة نفضته نفضاً وقال :

ــ يالله ، أقالت ذلك حقا ؟ . .

ــ هذا ما قالته بالحرف الواحد ، إننى لا أكذب . .

ــ ما أفظع هذا ، لابد أن أحاسبها على ذلك . .

فقالت وقد تحدرت الدموع على وجنتيها :

ــ وما الفائدة ، ما الفائدة بعد أن حدث ما حدث . .

ــ ولكنى لن أسكت يا ليلى . .

فقالت فى ضراعة :

ــ لا . . لا ، أرجوك ، إنها أمك وهى شديدة التعلق بك ولن أرضى أن تفقدك كما لا أرضى أن تفقدها بسببى ، الله يسامحها . .

فترقرقت دمعة فى عينيه وقال بصوت متهدج :

ــ لله ما أنبلك يا ليلى . .

وصمت لحظة ثم قال فى تلعثم :

ـ والآن يا ليلى ، هل تسمحين أن أوجه إليك سؤالا . .

ـ تفضل . .

ـ ما حقيقة القصة التى أشاعوها عنك بعد حفلة التمثيل ، أذلك صحيح يا ليلى . .

فتحركت فى مكانها فى ألم وفارت الدموع فى عينيها وقالت :

ـ كل ما قالوه كذب وافتراء ، أنا بريئة من هذه التهمة براءتى من التهمة التى ألصقتها بى أملك . .

ثم وضعت رأسها بين كفيها وأجهشت بالبكاء . فتخاذل صابر وقال بصوت راعش :

ـ لا تحزنى يا ليلى ، ثقى أن الله لن ينساك . .

فرفعت رأسها وقالت :

ـ أشكرك . . . وداعاً يا صابر . .

ثم تركته ونزلت مسرعة إلى مسكنها .

الفصل الرابع

واعتزم صابر فى ذلك اليوم أن يفاتح أمه فى هذا الأمر ولكنه عندما قابلها لم يستطع أن يدير لسانه بكلمة واحدة من الكلمات التى كان قد أعدها فى خاطره ، وأمضى معها الوقت كله يجاذبها أطراف الحديث فى شئون مختلفة لا تتصل بأية صلة بليلى ولا بأسرتها ولا بما أشاعته عنها من أحاديث السوء ، ولم يفارق أمه إلا حين تقدم الليل ، وعندما خلا إلى نفسه بعد ذلك ثار على نفسه ثورة عنيفة واشمأز من ضعفه وخجله واستخذائه أعظم الاشمئزاز ، وانتهى به تفكيره إلى أزمة حادة أطارت النوم من عينيه فظل واقفاً إلى بجوار النافذة شارد النفس ، مفرق الخواطر ، مشتت الذهن ينظر إلى السماء تارة وتارة إلى الضوء الضئيل المنبعث من دار ليلى دون أن يستقر اه قرار . وفى الليلة التالية عندما خلا إلى نفسه أخذ يفكر ويفكر وفجأة دبت فيه حماسة غير مألوفة لم يكد يشعر بها حتى تحول من مكانه واستلقى على فراشه وقد شملته نشوة شاملة لقوة ما عراه من شجاعة وتصميم .

وعندما جمعته بأمه مائدة الإفطار فى الصباح رمقها بنظرات تحمل بعض ما كان يفيض به قلبه من ضيق واضطراب ، فنظرت إليه أمه وأطالت النظر ثم قالت :

ـ أري وجهك شاحباً يا صابر ، ما بلك ؟ . .

فصمت قليلا ثم قال :

ـ إننى أشعر بضيق شديد يا أمى . .

فحدقت فى وجهه المنقبض وقالت مستفسرة :

ـ ضيق شديد ! ! وما سبب ذلك ؟ .

فبدت عليه الحيرة ولكنه استجمع أطراف شجاعته وقال :

ـ أتريدين الحقيقة ؟ .

فقالت عاجبة :

ـ طبعاً . . . ماذا هنالك ؟ . .

ـ إذن اعلمى يا أمى أننى متألم جداً من موقفك حيال ليلى .

فاضطربت الملعقة فى يدها وقالت فى شىء من الفزع :

ـ موقفى حيال ليلى ! ! ماذا تقصد بكلامك هذا ، صرح بخبيئة نفسك . .

ـ إننى أقصد أنه ما كان يجمل بك أن تشهرى بها هذا التشهير بغير حق ، وإنى آسف إذا كان فى قولى هذا ما يؤلم . .

فتجهم وجهها وقالت :

ــ إننى لم أفعل شيئاً يدعو إلى ما يؤلم أو يخجل . .

ــ ولكنك لم تذكرى الحقيقة لوالدها كما وقعت وإنما شوهت الحادث عن عمد بقصد تلويث سمعتها . .

فقالت هازئة :

ــ سمعتها ! ! وهل سمعتها بحاجة إلى مزيد من التلويث ، أنسيت فعلتها بعد حفلة التمثيل . .

ــ أنا واثق أنها بريئة من هذه التهمة أيضاً براءتها من التهمة الأخرى . .

ــ أخشى أنها ليست كذلك إلا فى نظرك ، والآن أظن أننا تكلمنا فى هذا الموضوع بما فيه الكفاية ، وإذا كنت تحبنى حقا فكف عن الكلام عن هذه البنت لأننى أكرهها ولا أحب سيرتها . .

فتردد لحظة ثم قال وهو يتماسك :

ــ ولكنى أحبها يا أمى .

فسقطت الملعقة من يدها وحملقت فى وجهه فى دهشة بالغة وقالت فى غضب :

ــ ويحك ، كيف تجسر على التفوه بهذا الكلام أمامى ؟.

ـ وأى ضير فى ذلك ، أليس من حقى أن أحب وأن أتزوج . .

فقالت فى فزع :

ـ ماذا تقول ! ! أجننت يا صابر ؟ . .

ـ أنا لست مجنوناً ، كيف تعدين هذا جنوناً ؟ . .

ـ اسكت ، اسكت ، لا أريد جدالا ولا مناقشة فى الموضوع الآن . .

ـ ولكنى أرغب فى الكلام فيه الآن لأننى أريد أن أتزوج من ليلى دون إبطاء . .

فانخلع قلبها وقالت فى عصبية :

ـ ماذا دهاك ، ما هذا الذى تقول ؟ أتتزوج من فتاة غير موثوق بماضيها . .

ـ لا تتحدثى هكذا عنها ، إنك تتصورين أموراً لا حقيقة لها ، إن ليلى مثال النقاء . .

ـ يالك من غرير ، يالك من غرير ، أنت مخدوع ، أنت غافل ساذج لا تعرف شيئاً . .

ـ أنا لست غرا ولا مخدوعاً . .

وظل كلاهما يرمق الآخر برهة وفجأة اصطنعت الرجفة

واصطكت أسنانها وقالت مولولة :

– يا خسارة تربيتى فيك ، يا لحظى العاثر ، يا لخيبة أملى فيك .

ولكن وجه صابر ظل جامداً لا يبدو عليه التأثر فاستأنفت تقول وهى تنشج :

– لم يارب قضيت على بهذا الشقاء ، لم تسعد الأمهات جميعاً بأبنائهن ولا تكتب العذاب إلا على وحدى . . .

فقال صابر متململا :

– علام كل هذا التوجع والتأوه يا أمى ، ألست رجلا ولابد للرجل أن يتزوج على كل حال ، ألا تحبين أن أكون سعيداً ؟ . .

فتنهدت تنهدة كبيرة وقالت وهى تجفف دموعها :

– ومن قال غير ذلك يا صابر . .

– إذن لماذا تعترضين على زواجى من ليلى ؟ . .

– لأنها لا تليق بك ولا بأسرتنا . .

– ولكنى أراها عكس ذلك ، إنها نبيلة الطبع والشعور علاوة على جاذبيتها . .

فقالت فى مرارة وتهكم :

ـ ما أسلم نيتك ، يظهر أنها خدعتك وغررت بك كما فعلت بغيرك . .

فقال فى حدة :

ـ أنا لست مخدوعاً ، لنختصر الحديث ، إننى سأتزوجها ، فإذا لم توافقى على زواجى فلا بقاء لى هنا . .

وقام ثائراً غاضباً واتجه إلى الباب يبغى الخروج من المنزل فجرت وراءه وأمسكت يده وقالت فى تخاذل :

ـ أنا آسفة يا صابر ، انس كل ما قلته ، ما دامت هذه رغبتك فأنا موافقة ، يجب أن تعلم أننى لاأبغى إلا سعادتك .

فقال وقد تهللت أساريره :

ـ أحقا ، ما أرق قلبك يا أمى .

ثم أمسك بيدها يهزها مغتبطاً أبلغ الاغتباط وخرج مهرولا يثب على الدرج وقلبه يخفق بنشوة السعادة والأمل . وما كاد صابر يغادر باب المنزل حتى فكرت أمه فى شىء آخر وهو أن تذهب إلى منزل ليلى وتطلب منها أن ترفض الزواج من ابنها فى مقابل عشرة جنيهات ، وكانت واثقة من الفوز لأنها فتاة فقيرة وتعلم كما يعلم غيرها من الجيران بأن ابنها لن يتخلى عنها بأى حال من الأحوال ، ولم تستطع نفيسة البقاء فى المنزل لحظة

واحدة بعد هذا القرار فذهبت إلى حجرتها وأخرجت من أحد الأدراج ورقة من فئة العشرة جنيهات ودستها فى جيبها ثم ارتدت معطفها وأسرعت مهرولة إلى الخارج .

وعندما دخلت منزل ليلى جلست قليلا مع امرأة أبيها ثم تحينت فرصة واختلت بايلى وقالت لها وهى تتصنع العطف عليها :

ــ ليلى ، أود أن أكلماك على انفراد فى أمر هام يخصك؟..

فقالت فى دهشة :

ــ يخصنى أنا ! . .

ــ نعم . .

ــ ما هو؟. .

ــ سأخبرك بكل شىء ولكنى أحب قبل ذلك أن تعدينى وعداً . . .

ــ ما هو ؟ . .

ــ هو أن يظل ما سأحدثك به سرا بينى وبينك ، فهل تعديننى بذلك ؟ .

ــ أعدك بشرط ألا يترتب على ذلك إساءة أخرى لى .

فتغاضت المرأة عن هذه اللطمة وقالت وهى تتلفت حولها فى حذر .

ــ اصغى إلى يا ليلى ، لقد جئت لأعرض عليك عرضاً أرجو أن تقبليه لصالحى وصالحك ، أنت لاشك تعلمين أنى لا أستطيع أن أتخلى عن صابر وقد علمت منه اليوم أنه يريد أن يتزوجك وهو أمر سوف يسبب لنا المتاعب ، ومن أجل ذلك جئت لأقول لك إن هذا الزواج يجب ألا يتم ، وليس لذلك من سبيل إلا إذا رفضت أنت طلبه . . .

فنظرت إليها ليلى فى استخفاف وقالت :

ــ أهذا كل ما تريدين ؟

فأجابتها باهفة :

ــ نعم يا ليلى ، ولك فى مقابل ذلك عشرة جنيهات سأعطيها لك الآن . .

فقالت ليلى فى اشمئزاز :

ــ أنا لن آخذ منك شيئاً ولكنى سأنزل على رغبتك لأنى لا أريد لصابر أن يشقى بسببنا . .

فأبرقت أسارير نفيسة وقالت وهى تخرج الورقة المالية من جيبها :

ــ لست أدرى كيف أشكرك ، خذي يا ليلى . .

فأجابتها فى أنفة :

ـ احتفظى بها لنفسك ، إننى لن آخذ منك شيئاً . .

ـ ولم يا ليلى ، الدنيا مصالح يا بنتى ، خذيها ولا تكونى ساذجة . .

فقالت ليلى فى امتعاض :

ـ قلت لك إننى لن أخذ منك شيئاً ، والآن هل هناك كلام آخر .

ـ كلا ، ولكن أرجو ألا تنسى ما وعدتنى به . .

ـ اطمئنى ، إننى لم أتعود أن أنكث بالوعد أبداً . .

وعادت ليلى إلى عملها فى المطبخ وقد وطنت النفس على رفض هذا الزواج رفضاً قاطعاً لأنها كانت تعرف مبلغ ما ستعانيه من شقاء وبلاء فى منزل نفيسة ، ولأنها كانت تحس أن الأستاذ نبيه يحبها كما تحبه وأنها ربما لم تخلق إلا له وربما لم يخلق إلا لها ، هذا فضلا عن أن أملها فى الاشتغال بالسينما كان ما يزال يراودها ولم تشأ أن يحول شىء بينها وبين الاستمتاع بهذا الأمل .

وبعد يومين حضر صابر وأمه وطلبا يد ليلى من والدها وحددا للقران يوماً قريباً ولما سمع أبوها ذلك دهش ولم يصدق أول الأمر لما كان يعلمه من أمر نفيسة ولكن نفيسة ما زالت به

حتى أقنعته بأن « صابر » صادق الرغبة فى الزواج وأنها لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً آخر . ووافق والد ليلى على الخطبة فى كثير من الفرح والأمل لأنه شعر أنها ستتيح له بعض الراحة وبعض الرخاء ، على أن هذا الأمل لم يقدر له أن يدوم طويلا ذلك أنه ما كاد يعرض الأمر على ليلى بعد خروجهما حتى امتنعت على هذا الزواج وألحت فى الرفض والامتناع بصورة غير مألوفة مما أثار الريبة فى نفس أبيها وامرأته فظنا أنها ما أصرت على هذا الرفض القاطع إلا بسبب تقصيرها فى ذات نفسها وتفريطها فى شرفها ، ولم تكد الزوجة تفضى إلى زوجها بهذا الخاطر البشع حتى جن جنونه وأقسم لينزلن بليلى أشد ألوان العذاب إذا هى لم توافق ولما أصرت ليلى على رأيها ركبه الشيطان فوثب عليها وكبها على وجهها وجمع شعرها بين يديه وراح ينتزعه فى عنف ووحشية وهو يصيح :

— سأقتلك بيدى . . . يجب أن تموتى يا شريرة . .

فصرخت ليلى عدة صرخات مفزعة ثم جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقله ونهضت واقفة ولاذت بركن الغرفة ثم صاحت بصوت مكظوم ينم على التحدى والعناد :

— إنك لن تقتلنى لأنك تخشى على نفسك ، ولكنى

سأعرف كيف أريحك من وجهى . .

وفى اللحظة التالية دارت على عقبيها وأسرعت مهرولة إلى الخارج وما إن بلغت الشارع حتى راحت تعدو فى الظلام زائغة البصر شاردة اللب وقد تصبب جسمها كله عرقاً ، وبعد دقائق مر بها تاكسى فنادته فتوقف السائق ونظر فى دهشة إلى الفتاة الجميلة الممزقة الشعر والثياب وقال :

– إلى أين ؟ .

– إلى كوبرى قصر النيل . .

وعندما وصل التاكسى إلى شاطئ النيل تلفتت ليلى حولها فى عصبية وقبل أن يبلغ التاكسى الكوبرى قالت للسائق لاهثة :

– هنا . . . هنا أرجوك .

وانتظر السائق أن تخرج له أجره من حقيبتها ولكنها لم تكن تحمل حقيبة وفى ثوان خلعت من معصمها ساعة معدنية صغيرة وقدمتها له وأسرعت مهرولة إلى الكوبرى . وقلب السائق الساعة المتواضعة فى يده ونظر إلى الفتاة التى كانت تعدو فى انفعال نحو الكوبرى ثم نظر إلى الكوبرى وفهم ما هى مقدمة عليه ، وفى لمح البصر ترك سيارته وأسرع خلفها ، أما هى

فلم تلتفت حولها ، إذ كان كل همها أن تصل إلى منتصف الكوبرى وتتسلق السور ثم تقفز من حالق إلى اليم .

واندفع السائق إليها وهى تعتلى السور وأمسك بثيابها وساعدته عضلاته القوية على أن يحملها حملا بين يديه وهى تبكى وتصرخ وتتوسل :

– اتركنى . . . دعنى . . . أتوسل إليك . .

وأقبل على صوت هذه الضجة جندى الليل فعرف القصة وحملها مع السائق إلى السيارة بينما كانت تصيح :

– اتركونى أموت ، أتوسل إليكم ، أريد أن أضع حدا لشقائى . .

وفى قسم البوليس مضت الإجراءات فى طريقها وكشف التحقيق عن شخصيتها وعن سبب إقدامها على الانتحار فاستدعى المحقق والدها كما استدعى إحدى قريبات أم ليلى بناء على طلبها ، وما هى إلا ساعة حتى أقبل أبوها ثم أقبلت على أثره سيدة متوسطة السن قالت إنها خالة ليلى وإنها تقيم مع زوجها وابنتها فى امبابة وبعد أن قصت ما تعرفه عن ليلى وعن قسوة أبيها عليها ومقاطعته لها وازوجها ، عرضت أن تقيم ليلى معها حتى لا تتعرض لبطش أبيها ومكائد زوجته مرة

أخرى ، ولم يكد والد ليلى يسمع بذلك حتى وافق فى الحال ، وسمح لليلى وخالتها أن يذهبا إلى بيته ويأخذا كل أشيائها التى تحتاج إليها ، وتم ذلك فى هدوء وخرجت ليلى مع قريبتها وهى تتحسس بطاقة التوصية فى سعادة وأمل .

وما كادت ليلى تغادر البيت حتى ذاع نبأ خروجها ومحاولتها الانتحار فى الحى الذى كانت تقيم فيه مع والدها ، ولم يكد صابر يعلم بنبأ رفض ليلى للخطبة وإيثارها الموت على الزواج منه حتى اضطرب اضطراب من مسه الصرع ، ثم انطوى على نفسه فأصبح لا يتحدث إلى أحد ولا يحب أن يتحدث إليه أحد ، هذا ما كان من أمر صابر أما أمه فقد فرحت للنبأ فرحاً شديداً ولكنها كتمت ما بنفسها وأخذت تبذل كل ما تستطيع من حيلة لتغرى « صابر » بنسيان ليلى وإثارة الريبة فى نفسه من ناحيتها ، وراحت تنصحه بألا يجازف مرة أخرى بشرفه وكرامته وتعدد له الأقوال المأثورة التى تحض على التروى وطلب السلامة ولكنها لم تستطع على كثرة ما حاولت، أن ترده إلى الهدوء والطمأنينة أو تجد إلى صرفه عن التفكير فى ليلى سبيلا ، ولما أن ضاق صدره بما يضطرب فيه من انفعالات وعواطف صاح بأمه ذات يوم قائلا :

ــ أماه إن نفسى مثقلة بالهموم ، فأناشدك ألا تزيدى همومى بهذه المواعظ التى لا فائدة منها لأننى لن أنسى ليلى أبداً ..

فحملقت فى وجهه فى دهشة وجزع وقالت مستنكرة :

ــ لا تقل مثل هذا الكلام المفزع يا صابر . .

فبادرها قائلا :

ــ هذه هى الحقيقة ولذلك فلست أحب أن تقولى فيها كلمة سوء . .

فقالت فى غيظ وحنق :

ــ انت لا تفهم معنى ما تقول . .

ــ أنا أعنى كل كلمة قلتها . .

ــ ماذا جرى لعقلك ؟ كيف تحبها بعد كل ما حدث ؟ .

فقال فى إصرار :

ــ إننى لا أصدق حرفاً واحداً مما قيل عنها ، وسوف أذهب إلى امبابة لأعرف الحقيقة بنفسى . .

ــ ويحك يا صابر ، أتفعل ذلك بعد أن رفضتك واستهانت بك إلى هذا الحد . .

ــ إن من حقى أن أعرف السبب .

فاعترتها هزة وقالت :

ـــ وما الفائدة ، خير لك أن تنساها . .

ـــ كفى يا أمى ، لقد أخبرتك بوجهة نظرى فلماذا تعاودين الكلام فى هذا الموضوع .

ـــ لأنك ما زلت صغيراً تفتقر إلى من يهديك السبيل . .

فنظر إليها فى ضيق وقال :

ـــ أمى . . أضرع إليك أن تتركينى . . . أرجوك . .

فقالت مقطبة :

ـــ شأنك وما تريد ، ولكن يجب أن تعلم أننى لن أرضى عن هذه الحال أبداً . . .

وفى اليوم التالى أصابت « صابر » وعكة ألزمته الفراش بضعة أيام .

الفصل الخامس

ولم يكن الأستاذ نبيه فى نفس الوقت بنجوة من عنت الخطوب فبعد افتراقه عن ليلى بعد حفلة التمثيل عاد إلى داره خافق القلب مضطرم العاطفة وقضى بضعة أيام وهو يحس أن صورة ليلى تملأ الوجود من حوله كما تملأ كل وجوده وكيانه، ولما برح به الشوق فكر فى أن يذهب وينتظرها على مقهى بالقرب من المدرسة ليعرف منها ما خفى عليه من أمرها وليقف على حقيقة شعورها نحوه ، فإذا وافقت على الزواج منه رغم فارق السن ذهب إلى والدها وطلب يدها منه . ولما استقر على هذا الرأى شعر أن حياته كلها قد تركزت فى ذرة واحدة من السعادة ، وأن نور الدنيا ازداد فى عينيه بهاء ، وأن كل ما حوله من الأشياء ليس إلا جزءاً من عالم سحرى يفيض فتنة وجمالا .

وخرج ذات يوم قبيل العصر وتوجه إلى المدرسة وانتظر على مقهى قريب ليراها عند انصرافها وما هى إلا دقائق حتى رأى الطالبات يخرجن من الباب أفراداً وجماعات فأخذ يتصفح

وجوههن فى لهفة بالغة إلى أن انقطع سيلهن ولما لم ير ليلى بينهن اضطرب قلبه وعراه قلق شديد ، وظل مكانه يرقب الباب يائساً قلقاً بضع دقائق أخرى ولما لم ير أحداً نهض من مكانه وهم بالانصراف وفى اللحظة التالية لمح خادمتين تغادران باب المدرسة فأسرع وعبر الشارع ثم دنا منهما وقال :

ــ معذرة ، هل تعرفان ليلى عمار ؟

فنظرت إليه إحداهما وقالت :

ــ ليلى عمار ؟ ! .

ــ نعم ، الطالبة التى كانت تقوم بدور البطلة فى حفلة التمثيل . .

فنظرت إلى زميلتها وقالت :

ــ أحسبك تعرفينها يا زينب . .

فأجابتها الأخرى قائلة :

ــ نعم أعرفها ، ماذا تريد منها ؟

ــ أريد أن أعطيها مجلة بها حديث عنها .

ــ أأنت صحفى ؟ . .

ــ نعم ، هلا أخبرتى أين تقيم ؟ . .

فهزت رأسها وقالت :

– بكل أسف ، أنا لا أعرف عنوانها ، أما هى فقد انقطعت عن المدرسة من مدة والله وحده يعلم لماذا انقطعت . . .

وابتسمت الخادمتان وانصرفتا وهما تتضاحكان

وبعد انصرافهما وقف نبيه فى مكانه ساهماً واجماً ثم مشى فى بطء وقد عول على التوجه إلى المدرسة فى صباح اليوم التالى للاستفسار بطريقة لبقة عن ليلى ومعرفة عنوانها وسبب انقطاعها عن المدرسة .

ولكنه ما كاد يصل إلى منزله حتى أسرع إليه خادمه وناوله رسالة ففضها وقرأها فإذا بها من رئيس التحرير وإذا بها تنبئه بضرورة سفره فى اليوم التالى إلى مديرية الشرقية لزيارة الأماكن التى نكبت بالكوليرا وموافاة الجريدة بتحقيقات ضافية عن تطور الوباء وحالة المصابين الذين مسهم الضر وألح عليهم الشقاء . وتلقى نبيه الخبر بشىء من الارتياح وعول على إرجاء موضوع ليلى مؤقتاً إذ رأى فى هذه المهمة فرصة تتيح له أن يرى الألم الإنسانى فى أقبح صوره وأبشعها ، وأن يضيف إلى خبراته حقائق جديدة تنفعه فى أعماله الأدبية ، ولما استقر رأيه على ذلك اتصل تلفيونيا برئيس التحرير وأخبره بموافقته على السفر فى الوقت المحدد .

وفى الصباح خرج وقضى بعض الوقت فى إعداد الترتيبات اللازمة للسفر إلى المنطقة الموبوءة ثم ذهب إلى المحطة ولما وصل إلى هناك بعث إلى والده فى أشمون برسالة أنبأه فيها بسفره وبنوع المهمة التى كلف بها ثم ركب القطار الذاهب إلى الزقازيق .

وكان نبيه قصصيا نابه الذكر مرتفع المنزلة قرأ معظم مؤلفات تولستوى وديكنز وسكوت وموليير وشكسبير وموباسان وموم وغيرهم من رواد القصة الغربيين كما قرأ كثيراً من كتب نوابغ الفكر العربى الأقدمين ، وقد أعجب بديكنز إعجاباً عظيماً وقلده فى بدء إنتاجه الأدبى ثم تخلص من التقليد وبرزت خصائصه فى رواياته وأقاصيصه التى كان ينشرها تباعاً فى الصحف والمجلات .

وكان نبيه أصغر إخوته وكان أبوه مزارعاً صغيراً فى أشمون وكان نبيه هو الوحيد بين إخوته الذى واصل الدراسة حتى نال ليسانس الآداب بتفوق كبير . وفكر بعد تخرجه أن يشغل وظيفة حكومية يرتزق منها فالتحق بعمل كتابى بوزارة العدل ولكنه أحس أنه يقضى أيامه عبثاً فى هذه الوظيفة فاستقال منها والتحق بإحدى الصحف الكبرى كمحرر ولم ينقض على التحاقه بهذه الوظيفة زمن طويل حتى ظهرت له أول رواية

مطولة فإذا بها باكورة تنطق بدلائل العبقرية ثم أتبعها برواية أخرى أقبل عليها الناس إقبالا لم يعرف له مثيل من قبل ، وطابت نفس نبيه أن يقدر الناس فنه على هذا النحو وشجعه ذلك على المضى فى الكتابة فظهرت له بضع روايات أخرى فى كتب مستقلة وفى السينما ، ولم يكف بعد ذلك عن نشر رواياته التى كانت تصور عذاب الفلاحين واستبداد الإقطاعيين أقوى تصوير وأصدقه ، وجاء مع الشهرة الأدبية المال والجاه فقام برحلات عديدة إلى الشرق والغرب تأثر بها أدبه إلى حد بعيد ، ولم يشغله يسره عن عسر أهله فمد إليهم يد المعونة حتى ابتسمت لهم الدنيا واستقامت لهم الحياة .

وعندما وصل نبيه إلى المنطقة المنكوبة كانت جميع الأعصاب متوترة وكل شىء يشعر بالخطر ولم يكد ينقضى على وصوله أيام قلائل حتى عم الوباء وفجع الناس فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وانتشرت رائحة الموت فى كل مكان . ونظر نبيه بعد أن استقر به المقام هناك فإذا الكارثة تستفحل وإذا الناس يهرعون من جحر إلى جُحر فراراً من الموت والذين لا يستطيعون السير يتساقطون فى الطرقات تحت وطأة المرض والجوع والفزع ، هنالك نهض نبيه فى تخفيف وطأة الوباء

نهوض الرجل الذى يعرف واجبه نحو قومه فكتب عدة رسائل إلى المسئولين فى الحكومة وصف فيها محنة المنكوبين وصفاً بليغاً مؤثراً ، كما حث بعض الأغنياء على التصدق بسخاء على المنكوبين وطالب الحكومة بمضاعفة عنايتها بهم حتى تزول المحنة وتنفرج الكربة . وبدأ نبيه بنفسه فأرسل إلى البنك الذى يودع فيه أمواله ليوافيه بنصف رصيده فلما وصله المبلغ قام بتوزيعه بنفسه على الناس ، ولم يكتف بذلك وإنما أبى إلا أن يكون فرداً منهم يشقى كما يشقون ويعيش كما يعيشون ، وكان يجد فيما يعانى من ذلك لذة لا تعدلها لذة وسعادة لا تبلغها سعادة .

ولكنه فى خضم هذه كله لم ينس ليلى فقد كان من أحب الأشياء إليه كلما خلا إلى نفسه أن يتمثلها فى خاطره ويستحضرها فى ضميره وكان الشيء الوحيد الذى يملأ قلبه حزناً كلما فكر فيها هو أنه لم يستطع أن يعرف مقرها ولماذا انقطعت عن الذهاب إلى المدرسة ، وقد أحس غير مرة خوفاً عظيماً ، وأحس غير مرة أملا عظيماً ، أحس الخوف حين عرضت له فكرة زواجها من شاب آخر ، وأحس الأمل حين استحضر فى خاطره نظراتها المتألقة التى كانت تنم على ما تكنه له من حب وتقدير ، وازداد هذا الإحساس فى نفسه قوة

بمرور الأيام حتى أصبح لا يتمنى على الله ولا على الحياة إلا شيئاً واحداً وهو أن يعود إلى القاهرة ليتزوجها وينعم بجوارها .

ولكن الحياة لم تشأ أن تمضى كما يريد فما هى إلا أيام أخرى حتى أصيب بالكوليرا نتيجة التعب والكد والإجهاد وأصبح شأنه فى ذلك شأن جميع المرضى التعساء الذين قدر لهم أن يتعرضوا لأهوال هذا الوباء المخيف وأعراضه الفتاكة البشعة .

وبدأ المرض بتقلصات شديدة مصحوبة بقىء وإسهال شديدين ثم جف الجلد وازرق الوجه ثم تطور المرض وثقلت وطأته حتى انتهى به إلى الغيبوبة أو إلى شىء يشبه الغيبوبة . وفيما هو فى هذه الحال وصلته رسالة من ليلى محولة إليه من إدارة الجريدة ولكن هذه الرسالة التى كان ينتظرها على أحر من الجمر لم يقدر لها أن تفض وأن تقرأ فظلت مهملة إلى جانب فراشه كسائر الرسائل والصحف والمجلات التى كانت ترد إليه من كل مكان .

الفصل السادس

ولنعد إلى ليلى فإنها بعد أن استقر بها المقام فى دار خالتها بامبابة أحست فى أول الأمر راحة ملأت قلبها رضا واطمئناناً فقد كان بيت خالتها بيتاً هادئاً لا يظهر عليه البؤس ولا يظهر عليه الثراء ، وكانت خالتها سيدة كريمة طيبة القلب حلوة الشمائل ، وكان زوجها رجلا متقدم السن يتقاضى معاشاً صغيراً من الحكومة ولكنه كان ينفق جانباً منه على مطالب البيت وينفق الجانب الآخر على علاج ابنته الوحيدة من مرض مزمن ألزمها الفراش مدة طويلة .

ومضت أيام أحست بعدها ليلى أنها تحمل الأسرة أكثر مما تستطيع أن تحتمل وأنها على قلة نفقاتها ترهقهم من أمرهم عسراً وخاصة بعد أن ثقلت وطأة المرض على المريضة وتضاعفت نفقات علاجها ، وأمام هذا كله رأت ليلى فرضاً عليها أن تعمل لتساعد هذه الأسرة الكريمة لتعيش كما ينبغى أن تعيش الأسر المتوسطة الحال ، وفكرت فى عدة أمور كان أهمها الخروج والسعى للاشتغال بالسينما ، ولكنها رأت قبل الشروع

فى ذلك أن تكتب للأستاذ نبيه لاستطلاع رأيه فى هذا الأمر ، فأرسلت إليه تلك الرسالة التى مر ذكرها على عنوانه بإدارة الجريدة وأفضت إليه فيها بكل ما حدث لها بجملة وتفصيلا من وقت افتراقها عنه إلى ساعة كتابة الرسالة إليه . وانتظرت ليلى بضعة أيام ولما لم يصلها رد منه على رسالتها شعرت بخيبة أمل مريرة وداخلها الشك فى أنه يحبها كما تحبه ، ثم خطر لها أن تتصل به تلفونيا فى إدارة الجريدة ولكن خجلها وشعورها وكبرياءها أبت عليها ذلك كما أبى لها خجلها وكبرياؤها أن تعيد الكتابة إليه ، وفى هذه الحالة النفسية المضطربة قررت ليلى أن تذهب سرا إلى مقر الشركة السينمائية لمقابلة مديرها حسين (بك) شكرى .

وفى صباح اليوم التالى خرجت وذهبت بمفردها إلى الزمالك ولما وصلت إلى هناك استرشدت ببعض السابلة حتى اهتدت إلى مقر الشركة وكانت بناء أنيقاً مكوناً من طابقين تحيط به حديقة مونقة ، وذكرت للبواب غرضها وأعطته بطاقة التوصية فذهب الرجل وغاب وقتاً ثم عاد وقادها إلى بهو استقبال فاخر الأثاث ثم أخبرها أن البيك سيستدعيها إلى مكتبه بعد الفراغ من مقابلة بعض الزوار ، فجلست على أول مقعد

وهى تحملق فيما ترى مأخوذة متوجسة ثم أطلقت لتفكيرها العنان، وفيما هى سابحة فى أفكارها أقبل أحد الموظفين ودعاها لمقابلة المدير فانتبهت من أفكارها وكان أول خاطر عن لها : كيف تواجه هذا الرجل الخطير الذى يستطيع بكلمة واحدة أن يرفعها إلى مصاف نجوم السينما ويجعل منها بطلة مرزوقة تعبدها الجماهير .

ولما اقتربت من الباب تريثت قليلا لتلتقط أنفاسها وتصلح هندامها وطرق الموظف الباب ثم أومأ إليها بالدخول وانصرف ، فتقدمت نحو الباب وقد وطدت العزم على إظهار كل ما لديها من مواهب لتفوز برضى شكرى (بك) وتكسب إعجابه وتقديره ، وعندما دخلت رأت رجلا جالساً إلى المكتب يدخن ويقلب بطاقة التوصية بين أصابعه ، كان فى الأربعين من عمره أسمر الجبهة غليظ الشفتين ، عريض المنكبين ، خشن الشعر مقرون الحاجبين تنم عيناه البراقتان المتباعدتان عن قوة غير مألوفة ، ولم يكد الرجل يراها حتى جفل وارتد إلى الوراء قليلا وبدا فى عينيه بريق غريب ثم نهض واقفاً وقال وهو يمد إليها يده :

— أهلا وسهلا . . . تفضلى ..

ولما رأى حيرتها وارتباكها قال :

ـ أنا شكرى ، لقد قرأت بطاقة فاطمة هانم ويسعدنى أن أكون فى خدمتك . .

فقالت متلعثمة وهى تصافحه :

ـ أشكرك ، هذا كرم منك يا سعادة البيه ، لقد جئت لأرجو مساعدتك لى فى الاشتغال بالسينما . .

فقال وهو يتفحصها مليا :

ـ هذا ما فهمته من بطاقة فاطمة هانم . . . تفضلى اجلسى . .

فجلست أمامه واستطرد يقول وهو يضطجع فى مقعده :

ـ يبدو لى أن فاطمة هانم واثقة من مواهبك كل الثقة . .

فافترت شفتاها الورديتان ابتساماً واشتد لذلك ابتهاج الرجل واستأنف يقول :

ـ ويخيل إلى أن فاطمة هانم لم تبالغ فى قولها ، فوجهك معبر للغاية وأعتقد أنه لا ينقصك شىء كثير كى تصبحى نجمة سينمائية . .

فقالت فى لهفة بالغة :

ـ أحقا تقول ؟

فقال وهو يرمق التعبيرات التى ارتسمت على وجهها فى شغف وإعجاب :

ــ بكل تأكيد يا ليلى . .

فقالت فى حماسة :

ــ إذن فسعادتك موافق . .

ــ طبعاً . . . طبعاً . .

ــ وماذا على أن أصنع ؟ . .

فقال وهو يدقق النظر إلى كل جزء من أجزاء بدنها :

ــ دعى هذا لى وللزمن ، سأتكفل أنا بكل شىء . .

فاشتعل خداها من فرط السرور وفاضت عيناها بالبشر ولبثت لحظة كالمسحورة ثم نظرت إليه وقالت :

ــ لست أدرى كيف أشكرك ، إننى لن أنسى لك هذا الصنيع . .

ــ عفواً يا ليلى ، إننى لم أصنع بعد شيئاً يستحق هذا الشكر . .

ثم دق الجرس وقال :

ــ أتحبين أن تتناولى معى قليلا من الشاى ؟ . .

فقالت مبتسمة :

ـ بكل سرور . .

وطرق الخادم الباب فطلب منه شكرى أن يحضر قدحين من الشاى وبعض الحلوى فخرج الخادم ثم عاد بعد دقائق حاملا صينية عليها أقداح الشاى وبعض الحلوى ووضعها على مائدة صغيرة وانصرف ، وتقدم شكرى وصب الشاى فى القدحين ثم قدم لها قدحاً قائلا :

ـ والآن يا ليلى ، هلم حدثينى عن نفسك وامنحينى ثقتك . .

فأجابته عن سؤاله بإيجاز وأخبرته ردا على أسئلة أخرى أنها تقيم عند خالتها فى إمبابة بسبب سوء معاملة أبيها لها ، وبعد أن سردت جانباً من قصتها نهضت واستأذنت فى الانصراف فنهض وتقدم منها وحياها ولم ينس أن يلاطف كتفها فى تودد وهو يبتسم ثم قال وهو يكظم فى نفسه عاطفة ثائرة :

ـ مادمت تريدين العمل فوراً فتعالى غدا لمقابلة أعضاء لجنة الاختبار الشخصى ، أيمكنك أن تحضرى الساعة العاشرة صباحاً ؟ . .

فبدا الارتباك على وجهها وقالت :

ــ يمكننى طبعاً أن أحضر ولكن أتظن أنهم يوافقون على قبولى بسهولة ؟ . .

فقال وهو يربت على كتفيها فى غير كلفة :

ــ بالتأكيد يا ليلى ، إنها مسألة شكلية لا أكثر ولا أقل ، لأننى الشخص الذى يقضى فى هذه الأمور فى النهاية ، وسوف ترين أن مسألتك ستنتهى على خير وجه لأننى معجب بك وأرى فيك نموذجاً فذا لفتيات الجيل الجديد . .

ولم تلحظ ليلى ما عراه من اضطراب وهو يتفوه بهذه العبارة ولو أنها أدركت فى تلك اللحظة ما كان يضطرم فى حنايا صدره من شهوة جارفة ، وما كان يجول فى خاطره من أفكار شيطانية لاقشعر بدنها ولأحجمت عن زيارته ، ولكنها لفرط ابتهاجها لم تفطن إلى شىء من هذا وانصرفت فرحة مسرورة بعد أن وعدته بالحضور فى الموعد الذى ضربه لها .

وكان شكرى رجلا مستهتراً ماجناً لعبت به الأيام كما تعودت أن تلعب بغيره من الأفاقين والمغامرين ، بدأ حياته عاملا فى متجر كبير وكان صاحب المتجر رجلا سقيماً نهكه المرض فلما قضى نحبه تقرب شكرى إلى زوجته وأخذ يتودد إليها حتى وقعت فى حبائله وقبلت الزواج منه ، وانتقل على أثر ذلك

للحياة معها فى القصر الأنيق الذى كانت تعيش فيه مع زوجها الراحل فى مصر الجديدة ، وفى هذا القصر دأب شكري على أن يقيم حفلات صاخبة منتظمة لأبناء البيوتات وأصحاب النفوذ فى دوائر الحكومة ، وأقطاب المال والاقتصاد والسياسة ويستخدم كبار المطربين والمطربات والفنانين والفنانات ليطربوهم ويدخلوا البهجة على نفوسهم ، ثم تعلق بلعب الميسر فلعب ما وسعه اللعب وخسر خسارة كبيرة ولكن الخسارة لم تزده إلى إسرافاً فى اللعب فاشتط فيه حتى بدد ثروة زوجته ، ولولا أن تداركه بعض ذوى النفوذ من الإقطاعيين والرأسماليين والمقربين إلى الحكام فى العهد البائد لحاق به البوار ، فبفضل هؤلاء أنشأ شركة كبيرة للاستيراد والتصدير والتهريب استطاع عن طريقها أن يجمع ثروة طائلة وأن يبسط سلطانه على كثير من الرجال والنساء من مختلف الطبقات ، كما أنشأ شركة للإنتاج السينمائى استطاع عن طريقها أن يقضى أرب مشاعره ومشاعر ندمائه من البهجة والجمال ، وغاية أبدانهم من الإثم والرجس والفجور ، وقد مكنته أوضاع المجتمع المنحرفة فى عهود الحزبية والإقطاع من تحقيق كل ما تصبو إليه نفسه فأطلق لنزواته العنان ، واصطفى لنفسه بطانة من البلطجية كان لا هم لهم إلا إرضاء غروره

وتحقيق رغباته ، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح له فى كل حى من الأحياء ، وفى كل وزارة من الوزارات عيون وأعوان يتلقون الوحى منه ، ويعملون رهن إشارته .

الفصل السابع

وعندما حضرت ليلى فى اليوم التالى قادها البواب رأساً إلى باب غرفة مجاورة لغرفة المكتب ثم تركها وانصرف ، فوقفت مترددة لحظة ثم طرقت الباب ودخلت ، وكان شكرى عندما دخلت جالساً فى استرخاء على مقعد كبير وثير وأمامه على مائدة مستديرة صينية محلاة بأجمل النقوش وعليها بعض المأكولات وزجاجة كبيرة اصطفت حولها أكواب بديعة الصنع ، فى حين كان يفوح فى جو الغرفة شذى عطر جميل زكى الرائحة ، وعندما رآها بادر إلى الوقوف قائلا :

ــ أهلا ليلى . . . تفضلى . .

وأفسح لها مكاناً إلى جانبه فترددت قليلا ثم جلست على طرف الأريكة فى خجل واستحياء وبعد لحظة صمت قصيرة سألها قائلا :

ــ هيه ، كيف قضيت ليلتك ؟ . .

فقالت باسمة :

ــ قضيتها فى أحلام لا أول لها ولا آخر . .

فقهقه ضاحكاً وقال :

ـ أحقا ، وماذا رأيت فى منامك . .

ـ رأيت أحلاماً سارة أبهجتنى ، ورأيت أحلاماً أخرى أفزعتنى ، أأقول لك الحقيقة ؟ . .

ـ طبعاً . . . طبعاً . .

ـ لقد حلمت أننى فشلت فشلا ذريعاً أمام اللجنة . .

فقال ضاحكاً وهو يدنو من مكانها قليلا :

ـ أ أنت خائفة من اللجنة إلى هذا الحد ؟ . .

ـ إلى أبعد حد . .

فقال وهو يمسك يدها متودداً :

ـ كونى مطمئنة ، لقد قررت الاستغناء عن اللجنة اكتفاء بحكمى . .

فهتفت فى جذل :

ـ أحقا تقول ؟ . .

فقال وهو يمسح يدها بيده ملاطفاً :

ـ نعم يا ليلى ، أيسرك هذا ؟ . .

ـ كل السرور . .

فابتسم وقال وهو يلاطف ذراعها العارية :

ـ حسناً ، والآن أمستعدة أنت ؟ أحب أن أشاهدك فى أحد الأدوار التى تجيدينها . .

فقالت وهى تسحب ذراعها فى لطف :

ـ أنا على أتم استعداد . .

ـ أي دور تفضلين ؟

ـ دور قيس فى مسرحية مجنون ليلى ، أيعجبك هذا ؟ . .

ـ جدا ، هيا يا حسنائى الصغيرة .

وهم أن يضع يده على خاصرتها ولكنه لاذ بالحكمة وآثر التريث ، ونهضت ليلى وأخذت مكانها فى وسط الغرفة ثم شرعت فى التمثيل على حين جلس هو على الأريكة وأخذ يحملق فيها مأخوذاً من وراء ذؤابات الدخان الذى كان يتصاعد من سيجارته المخلوطة بالحشيش فى أشكال غريبة ، وما أن انتهت من أداء دورها حتى صفق تحية لها ثم نهض واقفاً ووضع يديه على كتفيها وقال وهو يكبت عواطفه الثائرة :

ـ برافو ، أنت رائعة جدا يا ليلى . .

فتورد وجهها ابتهاجاً وقالت :

ـ صحيح ؟ أترانى كذلك حقا . .

فقال وهو يضغط على ذراعيها فى نشوة :

ـ أنت فوق كل وصف ، ما كنت أظن أنك بارعة إلى هذا الحد . .

وحاول أن يضع يده على خصرها مرة أخرى ولكنها تملصت من يده دون أن تتكلم وأثارته هذه الحركة ولكنه عاد فلاذ بالحكمة مرة أخرى فازدرد ريقه وقال :

ـ تعالى نجلس لنرى ماذا أعد لنا الطاهى الجديد وفى هذه الأثناء نستطيع أن نتحدث عن مشروعات المستقبل . .

وجلس إلى جوارها وأخذا يتكلمان ويتجاذبان أطراف الحديث وبعد وقت مال عليها وقال وهو يقدم إليها كأساً من الشمبانيا :

ـ خذى يا ليلى . . .

فقالت فى إباء :

ـ لا . . لا ، أنا لا أشرب الخمر . .

فقال معترضاً :

ـ ولكن هذه شمبانيا .

ـ ولو ، أرجوك . .

فألقى عليها نظرة حامية وقد أثاره عنادها ثم قال وهو يكظم انفعاله :

ــ عجباً يا ليلى ، أفتاة فنانة مثلك ترفض أن تشرب قليلا من الشمبانيا ، إن الشمبانيا مشروب لا نظير له فى إنعاش الروح ، فلم تفوتين على وعلى نفسك هذه المتعة . .

فقالت مقطبة :

ــ لا أستطيع ، إننى لم أذقها فى حياتى . .

ــ وماذا عليك إذا جربت ، إن من عادتى أن أتناول الشمبانيا مع كل نجم جديد إحياء للتعارف ولا يمكن أن أتخلى عن هذه العادة بحال من الأحوال لأننى أتفاءل بها أكثر من أي شيء آخر . .

فاشتدت عليها وطأة الارتباك وقالت فى تخاذل :

ــ أحتم أن تفعل ذلك معى ؟ . .

فسره تخاذلها وقال وقد أضاء فى عينيه بريق غريب :

ــ هذا ضرورى يا ليلى ، وإلا فلن أغتفر لك ذلك . .

فتحركت شفتاها دون أن تنبس فوثب قلبه من حرارة النشوة ثم تحرك حتى التصق بها وقال وهو يدنى الكأس من شفتيها :

ــ هيا اشربى وبرهنى على أنك فنانة أصيلة . .

فحدقت فيه بعينيها الواسعتين وقالت فى ارتباك وهى

تتزحزح عن جنبه الملتصق بها :

ـ ألا يكفى أن أشرب نصفها ؟ . .

فقال فى إصرار :

ـ كلا ، أرجوك ، ثق أن رأيك فيها سيتغير حين تذوقين منها أول قطرة . .

فتناولت القدح بيد مرتجفة وشربته ثم أرادت أن تنهض وتستأذن فى الانصراف ولكنه ألح عليها أن تبقى وما زال بها حتى أرغمها على شرب أربعة أكواب مترعة ما كادت تأتى عليها حتى دارت رأسها واضطرب كل شىء من حولها ، وكان هو يراقبها متحفزاً كما يراقب الذئب فريسته فلما أيقن أنها فقدت السيطرة على نفسها مال عليها فيما يشبه الانقضاض ثم احتواها بين ذراعيه وأطبق شفتيه على شفتيها فى حين كانت تتلوى وترتجف وتتوسل :

ـ دعنى . . أرجوك . . . أتوسل إليك أن تدعنى . . .

وحاولت أن تتملص منه ولكنه شد عليها بقوة فتداعت على صدره بلا وعى ولم يكد يشعر بصدرها الناهد يستقر على صدره حتى غلى دمه فانقض عليها كالوحش وكانت بحال من الإعياء لم تدع لها قدرة على المقاومة فاستسلمت له ثم استسلمت لغيبوبة لم تحس بعدها شيئاً .

الفصل الثامن

وعندما أفاقت ليلى بعد وقت رأته جالساً أمامها وهو يلوح لها بعقد اتفاق مكتوب ورزمة من الأوراق المالية ، ولما أدركت ما حل بها صاحت فى صوت ملتاع :

ــ ماذا فعلت؟ يا لعارى . .

ثم زفرت زفرة حارة وأجهشت بالبكاء ، فدنا منها وقال وهو يمد إليها يده بالعقد والأوراق المالية :

ــ أنا آسف يا ليلى ، لقد أسأت إليك فى ساعة طيش ولكنى مستعد أن أدفع ثمن غلطتى ، خذى يا ليلى : هذا عقد للعمل فى شركتى وهو كفيل بأن يوصلك سريعاً إلى عالم المجد ، وهذا المبلغ عربون للاتفاق الذى تم بيننا . .

وكانت تسمع كلامه مطرقة وتشهق شهيقاً مرا بالبكاء ولم يكد ينتهى من عبارته حتى رفعت رأسها وقالت بين شهقاتها :

ــ هذا محال ، لقد ضعت ، ضعت إلى الأبد ، ليس لى عيش بعد اليوم ، لم تعد لى حياة بعد اليوم . . .

فمد يده نحوها ومسح بها على رأسها وقال :

ــ علام كل هذا الجزع يا ليلى ، يجب أن تعلمى أنك منذ اليوم ستصبحين صديقتى المفضلة وستعملين فى شركتى حيث تستطيعين أن تملكى كل ما تريدين وتنالى كل ما تشتهين ، صدقينى أن ما أعرضه عليك سيجعل المجد فى ركابك ومتع الحياة كلها رهن أمرك .

فقالت فى شبه صيحة وقد عرتها هزة عنيفة :

ــ كفى . . كفى ، لا أريد أن أسمع منك شيئاً ، الموت خير لى من هذا العار . .

ونهضت واقفة وتحركت تبغى الانصراف فاعترض طريقها وقال وهو يصطنع التودد :

ــ أهكذا تريدين أن نفترق يا ليلى ؟ . .

فرمقته بنظرة شذراء وقالت :

ــ دعنى أذهب ، دعنى وإلا صحت بأعلى صوتى . .

فقال وهو يتنحى عن طريقها :

ــ كما تشائين يا ليلى ، ولكن دعينى أؤكد لك قبل أن تذهبى أننى لن أنساك وسوف أتصل بك فى امبابة بين وقت وآخر لأطمئن عليك ، وأحب أن أؤكد أن ما حدث لك سيظل طى الكتمان حرصاً على سمعتك .

فصاحت فى غضب :

- إننى لا أريد أن أراك ، إننى أكرهك . . أمقتك . . أمقتك .

قالت ذلك ثم اختطفت حقيبتها وأولته ظهرها واندفعت إلى الخارج .

وسارت فى الطريق شاردة الذهن خائرة القوى زائغة البصر محطمة الأعصاب وتابعت سيرها وقلبها يدق دقا عنيفاً وعيناها إلى الأرض ، ولما بلغت دارها بعد ساعة استطاعت بعد جهاد عنيف أن تخفى ما بها عن خالتها وزوجها ولكنها ما كادت تخلو إلى نفسها فى غرفتها حتى انهارت قواها فارتمت على فراشها وهى ترتجف وتنتحب ولكن دموعها الغزيرة لم تستطع أن تخفف النار التى كانت تضطرم بين جوانحها ، نار اليأس والخوف والندم وخيبة الآمال .

وقضت ليلتها قائمة واجمة تحاول أن تذود عن عقلها الصور المروعة التى كانت تعرض لها فلا تستطيع ، وتحاول النوم هرباً من خواطر اليقظة المفزعة فلا تستطيع ، وتحاول أن تطرد من ذهنها فكرة الانتحار التى كانت ترن فى أعماقها ولكن الفكرة كانت لا تزول إلا لتعود ، ولم ينقذها من خواطرها السود

إلا ضوء الصبح حين أقبل واضطرها إلى الاختلاط بأفراد الأسرة والفراغ لشئون المنزل ومن فيه .

ومضت أيام وليلى تحيا حياة عابسة تقطر أسى ويأساً ويشيع فيها القلق والخوف والاضطراب ، ولاحظت خالتها يوماً ماعراها فانفردت بها وسألتها وهى تضع يدها على كتفها وتطيل التحديق فى وجهها فى عطف وحنان :

ــ ما بلك يا ليلى ؟ . .

فأجابتها وهى تتظاهر بالثبات .

ــ لا شىء يا خالتى . .

ــ ولكنى أرى وجهك شاحباً وأحس منك تغيراً لم أتعوده .

ــ أنا بخير . . . كونى مطمئنة . .

وبعد حديث قصير خرجت خالتها لقضاء بعض حاجات المنزل وتركت ليلى بمفردها مع ابنتها المريضة ، وظلت ليلى بجوار المريضة إلى أن دق الجرس الخارجى فتركتها ونهضت لتفتح الباب ، وعندما فتحته رأت أمامها سيدة فى الأربعين من عمرها طويلة القامة ، ممتلئة الجسم ، أنيقة الهندام ، صارخة الزينة تحلى جيدها بعقد ماسى ثمين يخطف سناه الأبصار ، وتفوح منها رائحة عطر زكى يشبه أريجه أريج ذلك العطر

الذى كان يفوح فى مكتب شكرى يوم خطبها المفجع .
وقفت ليلى لحظة تنظر إليها بعينين تبدت فيهما الدهشة والخوف والتوجس ثم سألتها :

ــ ماذا تريدين ؟ . .

فابتسمت السيدة ابتسامة مريبة وقالت وهى تحدق فى وجهها تحديقاً شديداً :

ــ أأنت الآنسة ليلى ؟ .

فأجابتها فى قلق :

ــ نعم . .

ــ أريد أن أحدثك بأمر هام ، أتسمحين لى بالدخول ؟ .

ــ عن أى شيء تريدين التحدث معى ؟ . .

ــ ألا نستطيع أن نتحدث فى الداخل على انفراد ؟ . .

فأجابتها وهى تنظر إليها بنظرات حائرة :

ــ تفضلى . . .

وعندما استقر بهما المجلس قالت السيدة :

ــ إننى مكلفة بمهمة من قبل شكرى بك . .

فدق قلب ليلى بعنف واتكأت على مسند مقعدها حتى لا تنهار ونظرت إليها وقالت :

ـ أرجوك ، أنا لا أحب أن أسمع عنه شيئاً . .

ـ ولكنى لا أستطيع أن أذهب قبل أن أطلعك على ما يريده منك . .

فقالت ليلى فى شيء من التخاذل :

ـ وماذا يريد منى ؟ . .

ـ إنه يريد أن تذهبى إليه . .

فأجابتها فى حدة :

ـ مستحيل ، لن أذهب إليه ، ولا يمكن أن يرغمنى أحد على الذهاب . .

ـ ولماذا يا ليلى ، لماذا تريدين أن تضيعى على نفسك هذه الفرصة ، لو كنت مكانك لذهبت ، إن شكرى باك يحبك ومستعد لبذل كل ما يملك لإسعادك ، ولولا أنه متزوج ولا يستطيع إغضاب زوجته لتزوجك فى الحال . .

فانتفضت ليلى فى مقعدها وقالت فى غضب :

ـ ما هذا الذى تقولين ؟ كيف تسمحين لنفسك أن تخاطبينى بهذا الكلام . .

ـ معذرة إذا كنت قد أخطأت فى التعبير ، لقد قصدت أن أقول إنه مشغوف بك تملأ نفسه الرغبة فى إسعادك . .

وطفقت بعد ذلك تحدثها عن ثروته وعن نفوذه العظيم الذى يتمتع به فى داخل الحكومة وخارجها، فلم تعر ليلى كلامها أى اهتمام وقالت :

ـ وأية أهمية لهذا ، هذا أمر يخصه ولا يخصنى . .

ـ كيف لا يخصك ! إن شكرى باك متيم باك ، متدله بحبك ومعنى ذلك أنك ستستفيدين منه ومن نفوذه أعظم فائدة ، فماذا أنت قائلة ؟

ـ قولى له إننى لن أذهب إليه وأن الموت أحب إلى من الحياة التى يريدها لى ، وإذا حاول أن يرغمنى على ذلك فلن ألجأ إلى أحد ليحمينى منه ولكنى سأقضى على نفسى بيدى . .

ـ أهذا رأيك الأخير . .

ـ نعم ، ولن أحيد عنه بحال من الأحوال . .

ولما عادت المرأة إلى شكرى وأطلعته على رأى ليلى أمر أعوانه بعدم التعرض لها حتى لا تنفذ تهديدها ويخسرها خسراناً مؤبداً .

الفصل التاسع

وانقضى ذلك اليوم شاحباً عابساً يملؤه الخوف والتوجس والاضطراب كما انقضت الأيام الماضية التى مرت على ليلى بعد مأساتها الدامية التى حطمت كل أمل ، وأفسدت كل أمر ، وغيرت كل اتجاه .

وذات يوم وهى جالسة شاردة اللب مفرقة النفس فى غرفتها دخلت عليها خالتها وأخبرتها فى فرح غامر أن شابا حضر منذ دقائق وقابل زوجها وفاتحه فى خطبتها ، ووضعت فى يدها بطاقته ، ولم تكد ليلى تقرأ اسمه على البطاقة حتى ندت عنها صيحة دهشة وقالت خافقة القلب :

— نبيه المنفلوطى ! ! . .

فقالت خالتها متسائلة :

— ومن يكون نبيه المنفلوطى ، أتعرفينه يا ليلى ؟ . . .

فقالت وصدرها يعلو ويهبط من شدة الانفعال :

— نعم يا خالتى ، إنه صحفى وروائى مشهور جدا . .

فقالت المرأة فى حبور :

ــ ألف مبروك يا ليلى ، لقد كنت أتوقع هذا لك من زمن طويل ، إنك أهل لخير زوج يا بنتى ، هلمى ارتدى ثيابك وهيئى نفسك للقائه وسأذهب الآن لأعد له شيئاً يشربه وبعد ذلك سأعود لأراك قبل أن تذهبى إليه كى أتأكد من أن كل شيء على ما يرام .

ثم قبلتها فى عطف وحنان وانصرفت . وبعد خروجها ارتمت ليلى على مقعدها وقد امتلأ قلبها قلقاً وخوفاً وازدحمت رأسها بالأفكار والذكريات ، ثم تراءت لها صور مأساتها فى موكب دام يبعث الخوف ويرسل النذير فى صوت مزعج رهيب ، ومشت على أثر ذلك فى جسدها رعدة قوية كان مصدرها تخيلها حفلة الزفاف وخوفها وهلعها مما ستنكشف عنه تلك الساعة الرهيبة التى يتحتم فيها دخول زوجها عليها بعد انصراف المدعوين . وفجأة ومض فى ذهنها خاطر ما كادت تتأمله حتى استردت أنفاسها ، واستبانت بصيصاً من النور وسط الظلمة الخانقة التى كانت تحيط بها ، وكان مبعث ذلك تذكرها تصريحه الذى صارحها به عقب حفلة التمثيل فى شأن الخطيئة وما ينبغى أن يكون عليه موقف الزوج من

تسامح إذا وقعت الخطيئة قبل الزواج دون إرادة الزوجة .

ونهضت ليلى على أثر ذلك هادئة النفس بعض الشيء وتزينت وارتدت أحسن ثيابها ، ولما عادت خالتها وقفت تنظر إليها مقبلة مدبرة مستعرضة وبعد أن رضيت عن كل شيء قبلتها وصحبتها إلى غرفة الاستقبال ، ولما أهلت ليلى على الرجلين نهضا لتحيتها وقال زوج خالتها وهو ينظر إلى نبيه فى إكبار :

ــ نبيه بك المنفلوطى . .

فتقدمت منه باذلة مكنون قوتها لتمالك نفسها وقالت وهى تمد إليه يدها :

ــ أهلا وسهلا ، تشرفنا . .

وشعر بيدها على يده ناعمة رقيقة فاختلج صدره بانفعال جياش وقال فى جذل :

ــ أهلا بك يا ليلى ، لقد كنت أحدث الأستاذ حنفى منذ لحظة عن عبقريتك الفذة التى تجلت للناس فى حفلة التمثيل وعن الأثر العميق الذى تركته فى نفوسنا جميعاً ، لقد كنت فى الواقع رائعة جدا يا ليلى . .

وجلسوا جميعاً وأخذوا يتجاذبون الحديث فى موضوعات شتى وانتهز نبيه الفرصة فتحدث عن رحلته إلى الشرقية

وعن اضطراره إلى اعتزال الناس جميعاً بسبب إصابته بالكوليرا وبعد أن فرغ من الكلام عن الوباء وعن آثاره والجهود التى بذلت فى مقاومته نهض مستأذناً فى الانصراف بعد أن وعده الرجل بمشاورة والد ليلى فى أمر الزواج .

وبعد يومين اتصل به زوج خالتها تلفونيا وأخبره بموافقة والدها على الزواج ففرح نبيه فرحاً شديداً وذهب من فوره إلى أحد الجواهرجية واشترى منه سواراً ثميناً ثم انطلق إلى منزل خالة ليلى وقلبه يرقص طرباً ، وعندما دخل وجد الجميع فى انتظاره وفى مقدمتهم والد ليلى ، وتقدم الأب منه وفى وجهه بسمة عريضة وقال :

— مرحباً . . . مرحباً . . .

وبعد أن جلسوا وتناولوا المرطبات وضع نبيه يده فى جيبه وأخرج السوار ثم تقدم ناحية ليلى ولفه حول معصمها وعندما جاء الحديث عن الجهاز كفاهم مؤونة أى نقاش إذ اتفق معهم على أن يؤثث شقته بالأثاث الذي تختاره ليلى كما اتفق معهم على أن يجهزها بجميع الملابس التى تتمناها أما عن المهر فقد اتفق مع أهلها على أن يودعه باسمها بالبنك .

وبعد أسبوع احتفل الجميع بعقد قران ليلى فى حفل بهيج

حضره والد نبيه وإخوته ووالد ليلى وزوجته كما حضره نفر من أصدقاء نبيه كانوا مبعث ما شاع فى الحفل من فتنة ومسرة وجمال .

واستعجل نبيه يوم الزفاف ولم يرض بتأجيله رغم كل المعاذير التى أبدتها ليلى إذ كان من فرط سروره لا يصدق أنها أصبحت من نصيبه . وجاءها ذات يوم ولم يكد يراها حتى دهش لمرآها إذ كانت ذابلة العينين تمشى فى وجهها صفرة لم ير مثلها من قبل فنظر إليها فى جزع وقال :

ـــ ما بك يا ليلى ؟ أأنت مريضة ؟ . .

فقالت وهى تجهد فى إخفاء ما بها :

ـــ أبداً . . أبداً ، ليس بى شىء ، إنما أنا مسرورة بتحقيق أغلى أمنية لى فى الحياة .

فقال عاجباً :

ـــ ولكن حالك لا ينم على سرور ، خبرينى ، هل حدث شىء ؟ . .

فقالت وهى تتكلف الهدوء :

ـــ كلا ، لم يحدث شىء مطلقاً ، كل ما فى الأمر أننى أسرفت فى السهر مع بعض الضيوف بالأمس وقد زال ما بى الآن تماماً . .

فأخذ يدها فى حنان وقال :

ـ حسناً يا ليلى ، تعالى نجلس لنتحدث قليلا . .

ولما استقر بهما المجلس قص عليها قصة رسالتها بالتفصيل وعن أثرها العظيم فى نفسه ، وكان قد أخبرها بأمرها فى إيجاز فى حفلة القران ثم صارحها بأنه يعارض فى اشتغالها بالسينما معارضة شديدة لأن ذلك ينافى تقاليد أسرته ومضى يصف لها حياة أبيه ووقاره وتدينه وحماسته للتقاليد ، وبعد أن فرغ من الكلام عن هذا الأمر أخذ يدها بين يديه وقال وهو يضغط عليها فى حرارة ووجد :

ـ والآن يا ليلى ، لقد جئت لأطلب رأيك فى شيء . .

ـ تطلب رأيى فى شيء ؟ ما هو ؟ . .

ـ إننى أرغب فى أن نرحل إلى لبنان دون إبطاء لنحتفل معاً بالزفاف بعيداً عن الناس ، فما رأيك . .

ـ هذا شيء يسرنى ولكنى لا أرى للسرعة من داع .

ـ ولكنى أرى لها ألف داع ، وأولها أننى أريد أن نهنأ بخلوتنا فى جو شاعرى لا يعكر فيه صفونا أحد . .

ـ ألا ننتظر حتى يتسنى لنا رؤية الجهاز ونطمئن على كل شيء

ـ لا داعى لإضاعة الوقت هنا ، أرجو أن توافقينى يا ليلى ، إننى ما طلبت ذلك إلا لأننى أحبك وأريد أن أسبح معك فى دنيا الأحلام .

ـ ما دامت هذه رغبتك فأنا موافقة .

فمال عليها وقبلها قبلة حارة أودعها كل ما يكنه قلبه من حب وشوق ولأول مرة عرفت ليلى كيف تكون قبلات رجل متيم صادق الحب على شفتى من يحبها من أعماق قلبه ، وعاودها على أثر ذلك جأشها وذهب اضطرابها وتضاءلت مخاوفها وتضاءلت أيضاً صور شكرى وصابر ووالدها وزوجته ولم تعد عيناها تريان سوى نبيه ، ولم تعد أذناها تسمعان سوى كلمات السحر الحلوة ونداء الحب القوى النقى الأصيل .

قال لها وهو يضمها إلى صدره فى حراره وشوق :

ـ إنه حلم جميل استطعت أخيراً أن أحققه يا ليلى .

فأحست ليلى بقلبها يرقص وبالدنيا تفيض من حولها سعادة ونوراً ، وهمس فى أذنها قائلا :

ـ ما أجملك يا ليلى وما أبهاك ، أننى أحباك ، أحب الهواء الذى تتنفسينه ، والأرض التى تمشين عليها ، والبيت الذى تعيشين فيه ، وعينيك الساحرتين ، وشعرك الجميل ،

وفمك القانى البديع ، إننى أعبدك ، أعبدك يا ليلى . .

ولم تدر ليلى كم من الوقت أمضت بين ذراعيه فقد صرفتها حرارة حبه عن كل شىء وارتفعت بها إلى جو بعيد فى السماء ، وفعلت كلماته الصادقة الحارة فعلها فى نفسها فهمت بأن تكاشفه بمصابها الأليم كيلا يكون إخفاؤه عنه نوعاً من التدليس عليه ولكنها لم تقو على هذه المصارحة وآثرت التريث إلى أن يحين ظرف مناسب .

وبعد أيام ودعا أفراد أسرتيهما وسافرا بالطائرة إلى لبنان ليحتفلا وحدهما بالزفاف وليسعدا معاً بشهر العسل .

الفصل العاشر

وعندما وصلا إلى بيروت استأجرا غرفة فى أحد فنادق مصيف عاليه ومن هناك انطلقا يطلبان الترفيه عن نفسيهما بين مفاتن الطبيعة وبين أمكنة اللهو وصالونات الأدب والفن ، واستطاعت ليلى أن ترجئ ليلة الزفاف سبعة أيام بحجة توعكها ورغبتها فى الاستمتاع بأيامهما كحبيبين وكان مما ساعدها على ذلك كثرة الحفلات والولائم التى أقامها الأدباء والفنانون ابتهاجاً بقدوم الأستاذ نبيه وشدة إقبال المعجبين والمعجبات عليه مما حال بينه وبين الفراغ لعروسه والخلوة إليها فى أية ساعة من ساعات الليل والنهار .

وفى اليوم الثامن أراد نبيه أن يقضى مع عروسه اليوم بطوله بنجوة من الأصدقاة والمعجبين ومن ثم اقترح عليها الانتقال خلسة إلى فندق آخر فى مدينة بيروت فلم تعارض وفى الصباح الباكر حزما أمتعتهما واستقلا عربة وذهبا إلى أحد الفنادق ، وكانا قد عولا على تحقيق فكرة الطواف بالشواطئ البعيدة دون أن يشاركهما فى ذلك أحد وما حانت الساعة

العاشرة صباحاً حتى خرجا وقضيا ساعات النهار بين تطويف بالشواطئ وتصعيد فى الربا واضطجاع على الرمال وتسابق فى تناول الشطائر والفاكهة ، وظلا يستمتعان بهذه الرياضة الجميلة إلى أن أقبل المساء وعندئذ نهضا وعادا إلى الفندق .

وعندما احتوتهما الغرفة شعرت ليلى بخوف مفاجئ وساورها قلق شديد ولكنها أحست أنها تحسن صنعاً إذا أظهرته على الحقيقة قبل أن يكتشفها بنفسه ، فنظرت إليه وقالت فى صوت راعش وفى عناء شديد :

ــ نبيه ، أريد أن أبوح لك بشيء وقع لى فى أثناء وجودك بالشرقية ولم أعترف به إلى الآن . .

فقال فى هدوء :

ــ ما هو هذا الشيء يا ليلى ؟ أرجو ألا يكون له أدنى صلة بمتاعبك العائلية حتى لا نكدر صفو ليلتنا . .

وساد صمت وشعرت ليلى بأنها تقتحم لحظة رهيبة فى حياتها ولكنها تمالكت أعصابها وقالت :

ــ أتذكر يا نبيه ما قلناه فى شأن الخطيئة عقب حفلة التمثيل ؟ . .

فعلت وجهه سيماء الجزع والدهشة وتساءل فى قلق :

ـ أجل يا ليلى ، ولكن ما دخل ذلك فى الموضوع ؟ . .

فصمتت كالمترددة حيناً ثم تمتمت بصوت خفيض والحرج باد فى أساريرها :

ـ إن لذلك دخلاً كبيراً فى الموضوع الذى سأفاتحك به الآن ، وقد هممت غير مرة أن أبوح لك بكل شىء قبل القران ولكنى لم أجرؤ على ذلك رغم علمى بتسامحك فى هذا الشأن ، والآن لم يعد هناك مفر من الإفضاء إليك بكل شىء ، وأرجو أن يكون نصيبى الصفح . . .

ثم باحت له بما حدث لها فى مقر الشركة السينمائية وما أفضى إليه اتصالها بشكرى ولما سكتت ساد صمت مرهق رهيب وأطرق نبيه مفكراً وظل صامتاً دون أن ينبس بكلمة فتطلعت إليه وقالت فى ذلة وانكسار :

ـ هذه هى الحقيقة يا نبيه ذكرتها لك كما وقعت وأرجو ألا أكون قد تسببت فى إيلامك .

وكان يصغى إليها فى شبه ذهول ولما تكلم تكلم فى صوت جاف جعلها تشعر بالذعر :

ـ ليلى ، هذه كارثة ، كان الواجب يقضى أن تخبرينى قبل الآن . . .

فأحست كأن كل مشاعرها قد غاضت وأنها أشبه بغريق تقطعت به الأسباب وقالت فى اتضاع :

— لم أشأ أن أخبرك حتى لا تنفر منى . .

فأجابها فى صوت أجش :

— ليس هذا بعذر ، ولماذا لم تخبرى البوليس ؟ . .

— لم أفعل ذلك تجنباً للفضيحة وحماية لسمعتى . .

فقال فى خشونة واستنكار :

— هراء ، كان يجب أن تبلغى البوليس لتقتصى منه ، إن السمعة هى الشيء الذى يجعل ذلك الرجل لا يخاف أن يترك بصمات أصابعه على ضحاياه ، لأنه يعرف أن هؤلاء الضحايا سيكونون أكثر منه حرصاً على عدم وصول الأمر إلى البوليس ، وأنت فى نظرى تستحقين أشد عقاب ، وكل فتاة مثلك تستحق الذل الذى يلحق بها والهوان الذى يلتصق بسمعتها إذا أخفت تجربتها عن الناس بحجة حماية السمعة ، هذا باختصار هو رأيى فى الموضوع . .

فقالت لاهثة :

— نبيه ، لقد كنت أحسبك تحبنى ، فإن كنت تحبنى فكيف تحكم على هذا الحكم رغم أن ما حدث لم يكن

بإرادتى ، وكيف لا تريد أن تتسامح معى رغم أن ظروفى لا تختلف عن ظروف بطلة قصة « سلوى » التى تحدثنا عنه من قبل ؟ . . .

فأشاح عنها وقال فى ضيق :

ـ لقد كنت أحبك لأننى كنت أرى فيك مثلا أعلى فى كل شىء ، أما ما قلته عن التسامح فقد كنت فيه مخطئاً أشد الخطأ ولعل مرده إلى أننى لم أجرب شعور الزوج على حقيقته فى هذا الأمر ، إننى أشعر الآن أنه أمر فظيع لا يطاق . . .

ـ اعف عنى يا نبيه ، أتوسل إليك أن تعفو عنى . .

فصمت طويلا وكأن شفتيه اختفتا من وجهه وعادت تقول فى توسل واستعطاف :

ـ ألا تريد أن تعفو عنى . . . أنا مظلومة . .

فقال وهو لا ينظر إليها وليس فى صوته سوى خشونة وازدراء وصرامة :

ـ لا أستطيع أن أغفر لك أبداً ، يا إلهى كيف أستطيع أن أعاشرك بعد هذه الزلة

فشهقت شهقة خافتة وقالت وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها :

ـ ألا تستطيع أن تتغاضى عما كان بعد أن صارحتك بالحقيقة وبعد أن أقسمت لك أن الذنب لم يكن ذنبي وإنني لم أفعل شيئاً عن عمد . .

فقال وهو يتململ فى مكانه :

ـ إنني موقن بأن الذنب لم يكن ذنبك وأنك لم تفعلى شيئاً عن عمد .

فقالت متلهفة :

ـ إذن لماذا لا تصفح عنى ؟ . .

ـ لأن الصفح فى هذه الحالة يحتاج إلى قوة روحية لا أملكها . .

فتغضن وجهها أسى وقالت ملحفة فى توسلها :

ـ أضرع إليك أن تصفح عنى من أجل حبنا . .

فهز كتفيه وقال فى مرارة وازدراء :

ـ لا تحدثى عن الحب ، لقد قتلت حبي ، وضاع أثرك فى نفسى وخرجت من قلبي تماماً . .

فشحب وجهها وارتعدت فرائصها واحتبس الصوت فى حلقها لحظة ثم قالت :

ـ أأنت جاد فى قولك يا نبيه ؟ . . .

فأجابها فى إصرار :

ـ نعم ، ويجب أن نفترق فوراً . .

فجثت عند قدميه وانبعث منها أنين مكتوم فبدت كزهرة جميلة سحقتها الأقدام وأخيراً همست قائلة :

ـ أتوسل إليك ألا تتركنى ، لا تتركنى يا نبيه ، إننى وحيدة ليس لى فى الحياة نصير . .

وخنقتها العبرات فلم تقو على الكلام فرنا إليها شاحب الوجه وقد هزته دموعها الجارية ولكن تصميمه على موقفه كان أقوى من تألمه فقال لها :

ـ إن مشاعرى أعقد من أن تدركيها على حقيقتها ، فأرجو أن تساعدينى على وضع حد لهذه المأساة ، إننى جد حزين ، وربما أقمت لك العذر يوماً وربما لمت نفسى أشد اللوم فى المستقبل على موقفى هذا منك ، ولكنى لا أستطيع الآن أن أرضى بمعاشرتك واستمرار الصلة التى قامت بيننا .

وساد على أثر ذلك صمت ثقيل الوطأة ملأ الحجرة بأنفاس اليأس ، ونهضت ليلى واقفة وهى تحملق فى وجهه فى ذهول ثم خفضت عينيها فى ذل وحركت شفتيها مرة ومرة كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت :

ـ أهذا قرارك النهائى ؟ . .

ـ نعم ، لابد من الفراق . .

فسقطت سحابة قاتمة فوق وجهها وقالت :

ـ وماذا على أن أصنع ؟ . .

ـ عليك أن تعودى إلى القاهرة فوراً ، أما أنا فسأبقى هنا بضعة أيام وقد أسافر إلى سوريا وسأكتب إليك من هناك بتفاصيل ما يستقر عليه رأيى فى شأن الانفصال . .

فأحست كأنها لطمت من جديد ولكنها تجلدت وبدأ تفكيرها يتخذ وجهة أخرى ، إن هذا الرجل الذى علقت عليه أكبر الآمال والذي ظنت أنه مثل أعلى فى النبل والمروءة والنجدة ليس فى صميمه إلا صنماً متحجراً لا تعرف الرحمة إلى قلبه من سبيل ، وبعد أن فكرت قليلا قالت له :

ـ كما تشاء يا نبيه ، أنا مستعدة للسفر فى الموعد الذى تحدده ولكنى أسألك فقط ألا تذكر سبب فراقنا لعائلتى رحمة بى .

ـ أعدك بذلك . .

وسكت قليلا ثم قال :

ـ سأذهب الآن للمبيت فى فندق آخر وسأمر عليك

غداً لأخطرك بموعد قيام الطائرة .

فلم تعلق على كلامه بشيء ، ووقف لحظة ثم أخذ بعض ملابسه ووضعها في حقيبة وهم بالانصراف وعندما أراد مصافحتها مدت إليه يداً باردة ثم تحولت عنه ومضت إلى النافذة .

وفي مساء اليوم التالي حضر إلى الفندق وأعطاها تذكرة السفر وخمسين جنيهاً وانصرف ، وفي الصباح الباكر حضر إلى الفندق وصحبها إلى المطار وفي أثناء الطريق جلسا في السيارة كغريبين ، أما هو فقد أولاها نصف ظهره وشغل نفسه بالتطلع إلى الطريق خلال النافذة ، وأما هي فقد خفضت رأسها وغابت في ذهول عميق .

وعندما وصلا إلى المطار غادر نبيه السيارة من باب وغادرتها هي من الباب الآخر ثم سارا جنباً إلى جنب إلى جمرك المطار دون أن يتبادلا كلمة واحدة وبعد أن قضيا فيه وقتاً خرجا وقصدا إلى مكان الطائرة ، وقبل أن تهم ليلى بالصعود سمعته يقول في صوت منخفض :

ــ ليلى ، لا ينبغي أن نفترق هكذا أمام الناس . .

فمدت إليه يدها في فتور ثم سحبتها وصعدت سلم الطائرة

على عجل وراقبها نبيه فى صعودها وقد خامره أمل فى أن تطل من النافذة ولكنها لم تفكر فى ذلك وإنما جلست فى مقعدها واستسلمت لموجة عاتية من الأفكار المفزعة حتى أثقلت الهموم رأسها فانحنى على صدرها كما ينحنى رأس من سدت فى وجهه منافذ الحياة جميعها .

ولبث نبيه فى مكانه مضطرباً يتجاذبه الندم واليأس والألم وتتكالب عليه شتى الأفكار والصور إلى أن رده أزيز الطائرة إلى شعوره فتطلع إلى نافذة ليلى وفجأة أفلتت منه آهة عميقة ومد ذراعه بحركة لاشعورية كأنما وجد للمسألة المعقدة حلا آخر ، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بآهته ولكنها ضاعت وسط أزيز الطائرة التى ما لبثت أن ارتفعت وانطلقت تشق طريقها فى الجو بسرعة خاطفة .

وأخيراً ترك مكانه ومشى ببطء وهو ينتزع قدميه من الأرض انتزاعاً .

الفصل الحادى عشر

وتوجهت ليلى عقب وصول الطائرة إلى منزل خالتها بامبابة ولم تشأ أن تخوض مع خالتها وزوجها فى حديث الزفاف أو الأسباب الحقيقية لعودتها الفجائية بل اكتفت بأن قالت بأنها كانت سعيدة وأنها اضطرت إلى العودة بمفردها بسبب سفر زوجها فى مهمة طارئة إلى سوريا والعراق ، واستقبلتها خالتها وزوجها بفرح وترحاب وعرضا عليها أحدث ما اشترياه لها من ملابس ثم جلسا يسألانها عن لبنان وأهله فحكت لهما طرفاً مما شاهدته فى ربوعه الجميلة وقضوا بقية يومهم يتسامرون حتى إذا ما هبط الليل وفرغوا من تناول العشاء استأذنت ليلى وانصرفت إلى غرفتها لتنام .

ولم تكد تنفرد بنفسها حتى ارتمت على فراشها تملكها أزمة حادة عنيفة كادت تفقدها صوابها ، وظلت فى فراشها تبكى وتنتحب ساعة ولما لم يجد البكاء فى تخفيف وطأة حزنها وآلامها نهضت متثاقلة وجلست إلى جوار النافذة واستسلمت لأفكارها المؤلمة وخواطرها السود ، وظلت كذلك حتى مسها برد الصباح ،

هنالك نهضت جزعة وعمدت إلى سريرها فأحدثت فيه شيئاً من الاضطراب ثم آوت إليه كارهة متكلفة لتعلم الأسرة أنها قد قضت ليلة عادية لم تخرج فيها عن المألوف .

وبعد وقت تركت غرفتها وهى تكظم حزنها وتكفكف دموعها ، واستطاعت بقوة إرادتها أن تظهر وجهاً مشرقاً لأفراد الأسرة ، وعندما حضر أبوها وزوجته لم يستطيعا أن يستكشفا شيئاً من وراء الحجاب الثقيل الذى ألقته على همومها وآلامها أو يقفا على السر المفجع الذى كان يمزق نفسها تمزيقاً .

وفى اليوم التالى ذهبت لتقيم فى دار أبيها بضعة أيام ولشدة حرصها على إخفاء خطر انفصالها عن زوجها أخذت المبلغ الذى أعطاها إياه نبيه فى لبنان ودفعته إلى أبيها مع جزء من المبلغ المودع باسمها فى البنك ليوسع بهما على نفسه وعلى أسرته كأن ذلك بعض ما تستطيعه زوج رجل عظيم المكانة مثل الأستاذ نبيه ، فامتلأت الدار بالولائم والأفراح بفضل سخاء ليلى وأصبحت موضع الرعاية والعطف والمحبة من الجميع ، وقد بلغ من عناية زوجة أبيها بها — بعد أن أغدقت عليها الهدايا — أنها كانت تعنى بطعامها ومنامها وتسارع إلى تلبية طلباتها فكانت تطهو لها ألوان الطعام التى تميل إليها وفى موعد النوم تهيئ

لها الفراش وتمكث بجوارها تسامرها إلى ساعة متأخرة من الليل .

وقضت ليلى أياماً يسودها هدوء وخمول وعلى الرغم مما كانت تقوم به من العمل لمساعدة بنات أبيها فى دروسهن كانت تحس فى قرارة نفسها بملل وسأم يشوبهما كآبة وخوف شديد من المستقبل ، وكانت أحياناً تقصد إلى حجرتها لتخلو إلى نفسها وإلى همومها وأحياناً كانت تصعد إلى السطح وتقضى وقتاً طويلا سابحة فى أفكارها وهى تحدق فى ذهول فى أرجاء الفضاء المحيط بها .

وذات يوم وهى جالسة سابحة فى خيالاتها وأفكارها فوق السطح لمحت « صابر » واقفاً بجوار نافذة حجرته على سطح منزله وهو يرمقها فى حيرة وارتباك وسمعته يناديها فى حذر :

— ليلى . . . ليلى . .

فنهضت وتقدمت منه وهى تدقق النظر فى جسمه الضامر الأعجف فإذا هو قد ازداد هزالا وسقماً ونحافة فقالت له فى إشفاق :

— نهارك سعيد يا صابر . .

فحنى رأسه وأخذ يدعك يديه فى حيرة شديدة وقال :

— نهارك سعيد يا ليلى . .

فسألته وهى تتأمل وجهه النحيل الممتقع :

ــ ما بك يا صابر ، أراك متغيراً ، أأنت مريض ؟ . .

فقال وهو يلهث وصدره يعلو ويهبط من شده الانفعال والتأثر :

ــ نعم يا ليلى . .

ــ مم تشكو . .

ــ من أمراض كثيرة أضنت جسمى وحطمت قلبى . .

ــ يسوءنى أن أسمع ذلك ، شفاك الله يا صابر . .

ــ ألا تدرين يا ليلى أنك كنت السبب فى كل ما حل بى .

فقالت فى دهشة :

ــ أنا ؟

فقال متلعثما وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه :

ــ نعم يا ليلى ، دعينى أفصح ، لقد ظلمتنى ظلماً عظيماً حين رفضت الزواج منى وآثرت على غيرى . .

وسكت لحظة ثم انبرى يقول فى حمية وانفعال :

ــ حقا لا وجه للمفاضلة بينى وبين الأستاذ نبيه فى نظرك ، ولكن قيمتى فى نظر كل عاقل أكبر من قيمته لأننى أحبك من كل قلبى حبا خالصاً لا تشوبه شائبة وأعتبرك حياتى

وغاية آمالى . . .

ثم أخذ يقرع صدره ويقول :

ـ أنا أفضل منه مائة مرة لأننى شاب شريف طيب القلب لا يخادع النساء بمعسول الكلام ولا يشترى قلوبهن بالمال . .

وتقلصت على أثر ذلك سحنته وارتعشت شفتاه فارتاعت ليلى لمرآه وخشيت أن يتمادى فى ثورته فقالت متلطفة :

ـ مهلا يا صابر ، ماذا أقول لك ، ليتنى أستطيع أن أصارحك بالحقيقة . .

فقال متألماً :

ـ أنت لا تستطيعين أن تصارحينى بالحقيقة إشفاقاً على ولكنى أعرفها لأننى أعرف كيف يبدو لك وجهى وجسمى . .

فقالت فى إشفاق :

ـ عجباً منك يا صابر ، أتظن أن هذا هو السبب ؟ .

ـ بكل تأكيد يا ليلى ، أين أنا من شاب جميل ثرى ملحوظ المكانة مثل الأستاذ نبيه . .

فقالت مترفقة :

ـ ليس هذا هو السبب الحقيقى يا صابر ، إننى لم أرفض زواجك من أجل هذا وإنما رفضته لأننى لم أرض أن أقف

بينك وبين أملك .

فقال فى دهشة :

ــ أمى ! ! . .

ــ أجل ، إن أمك سيدة وحيدة وترى من حقها أن تستأثر بك وحدها ولذلك لم أشأ أن أحول بينك وبينها حرصاً على سعادتك ، أفهمت الآن يا صابر ؟ . .

فازداد وجهه امتقاعاً وبرزت عظامه على نحو مفزع وقال :

ــ وهل طلبت منك أمى أن ترفضى الزواج منى . .

فبادرته قائلة :

ــ كلا . . . كلا . . .

ــ إذن كيف عرفت حقيقة شعورها نحوى . .

ــ كلنا نعرف ذلك عنها . .

فقال فى غضب :

ــ ليتها لم تكن أمى ، إنها أشأم أم وهبت الحياة لابنها . .

ــ لا ، لا تقل هذا الكلام يا صابر ، إنها معذورة لأنها تعودت أن تكون بجوارك . .

فنكس رأسه وهمهم كأنما يخاطب نفسه :

ــ إذن هى المسئولة . . هى المسئولة عن كل هذا ،

سأعرف كيف أحاسبها على تصرفاتها معى . .

فقالت له فى صوت لين :

ــ لو كنت مكانك لما تكدرت من تصرفاتها ، إنها أمك وقد خدمتك أخلص ما تكون الخدمة وبذلت فى سبيلك أثمن ما عندها ، ولست أرضى أن تحنق عليها بسببى ، والآن أرجو لك وقتاً طيباً . .

وابتسمت له ثم تركته وانصرفت .

ووقف ينظر إليها إلى أن غابت عن نظره ثم ترك مكانه وقصد إلى فراشه .

وأمضى صابر بعد ذلك ثلاثة أيام لم يذق فيها النوم إلا غراراً . كان يقلب مشكلته على شتى الوجوه فتتنازعه مختلف الإحساسات ، وبالرغم مما أصابه من أرق استيقظ فى اليوم الرابع مبكراً وقد أزمع أمراً حزم عايه رأيه ، وكانت أمه قد سبقته بالنهوض من فراشها فما أن وقع بصره عليها حتى بادرها بقوله :

ــ اسمعى يا أمى . .

فهرعت إليه باسمة فقال لها على الأثر :

ــ لقد قررت أن أترك هذا المنزل على الفور . .

فدقت المرأة صدرها فى دهشة وفزع وقالت :

ـ تترك هذا المنزل ! ! ولماذا ؟ ماذا حدث ؟ . .

فقال فى عصبية :

ـ سأذهب لأعيش بمفردى ، وإذا اعترضت فلن أعود إلى هنا أبداً . .

فقالت وهى تتفحص وجهه مليا :

ـ وهل حدث ما يستوجب ذلك يا صابر ؟ . .

فقال وهو يشيح بوجهه عنها :

ـ إننى لم أعد أطيق العيش هنا ، هذا كل ما فى الأمر . .

فعقدت يديها على صدرها وقالت فى تحد :

ـ حسناً ، أنت وشأنك ، ولكن إذا ندمت على ما فعلت فيما بعد فلا تلق على لوماً . .

وتركته ومضت إلى غرفتها فانتظر قليلا ثم نهض وارتدى ملابسه وجمع أشياءه وغادر المنزل ، فلما أحست بخروجه أسرعت إلى النافذة وأخذت تشيعه بنظرها حتى اختفى عن الأنظار .

وعلى أثر انصراف صابر اشتد الغضب بأمه وامتلأت نفسها غيظاً وحنقاً على ليلى اعتقاداً منها بأنها السبب فى خروج

ابنها على هذا النحو وشعوراً منها بأنها لابد قد قابلته فى الخفاء بعد عودتها من لبنان وأفضت إليه بالسر الذى ائتمنتها عليه يوم سعت إليها وعرضت عليها أن ترفض الزواج منه فى مقابل العشرة جنيهات ، ولم يكد يستقر هذا الخاطر فى نفسها حتى غلى الدم فى عروقها وعولت على الخروج لمقابلة ليلى فى منزل والدها للانتقام منها ومحاسبتها على فعلتها .

وخرجت بعد وقت وهى تنتفض من الغضب ثم طرقت باب منزل ليلى ودخلت وكانت الأسرة ما عدا ربها مجتمعة حول ليلى بالصالة فتقدمت منهم جهمة الوجه بادية الغضب وبعد أن حيتهم تحية مقتضبة رمت ليلى بنظرة نكراء وقالت لها فى غيظ مكتوم :

ــ ليلى ، أريد أن أكلمك على انفراد . .

ــ على انفراد ! ولماذا ؟ . .

فقالت فى غلاظة وحنق :

ــ لأن صابر تركنى الآن وذهب ليعيش بمفرده . .

فأجابتها فى إهمال :

ــ وما شأنى ببقائه أو خروجه . .

فصاحت مزمجرة وقد أفلت منها زمام أعصابها :

ـ أتظنين يا فاجرة أننى غافلة عن مناوراتك ، ماذا قلت له يا شريرة . .

ولم تكد تتفوه بهذه العبارة حتى انبرت لها زوجة أبي ليلى وصاحت بها بفظاعة لم تتوقعها :

ـ اخرسى ، قطع لسانك ، كيف تجسرين على إهانة ليلى أمامى . .

فصاحت أم صابر بصوت وقح :

ـ ما شاء الله ، أتسبينى من أجل هذه الفاجرة ، ولكن لا عجب فأنت مدينة لها بكل هذه النعمة ، ومن العدل أن تدافعى عنها لأنك بالطبع تفضلين الرزق والمال على الحياة الشريفة . .

وثقبت هذه العبارة قلب ليلى فلاحت فى عينيها نظرة زائغة أما زوجة أبيها فقد انتفضت قائمة وقد شبت بنفسها رغبة فى الإيذاء ، ونشبت على الأثر معركة حامية باليد واللسان انحازت فيها أخوات ليلى إلى أمهن فى حماسة هوجاء ، ولما رأت أم صابر أنها تندحر أمامهن فى حرب غير متعادلة تخلصت من أيديهن وانطلقت خارجة كأنها تفر وهي تتوعد وتهدد وتهذر بأقذر أنواع السباب .

الفصل الثانى عشر

هذا ما كان من أمر ليلى أما نبيه فإنه ما كاد يغادر المطار بعد رحيل زوجته حتى أحس بمشاعر متضاربة لا تهدأ ، وأخذ يستعرض ما كان من حديث معها فاستبان له أنه أسرف فيما قال وأنه تسرع فيما كان منه إليها ، وأنه كان خليقاً أن يتناول الأمر معها فى هدوء وتسامح وتعقل ، وعاد إلى الفندق وهو يشعر بالحيرة والاشمئزاز من نفسيته المتقلبة ، واشتدت حيرته حين توهم أنه ظلم ليلى وأنه تنكب الطريق التى كان يجب عليه أن يسلكها وفاء لمبادئه التى أعلنها من قبل ، وتذكر فى تلك الساعة ما كتبه أحد النقاد عنه حين قال فى معرض حديثه عن نظرياته وخاصة فيما يتعلق بالحب والمرأة أن عقل نبيه لم يصل بعد إلى نظرة محددة لافتقاره إلى التجارب وهذا سبب تغيير نظراته دائماً وتذبذبه من الشىء إلى نقيضه ، وأن نجاحه العظيم فى تصوير بعض عيوب المجتمع يقف جنباً إلى جنب مع فشله العظيم فى رسم لوحات صادقة للحب .

وظلت هذه الأفكار تتجاذب نبيه وتضطرب فى نفسه إلى

أن اقتنع آخر الأمر أنه مخطئ وأن ضميره لن يطمئن وأن نفسه لن تستريح إلا إذا عاد إلى مصر ولحق بليلى واعتذر إليها واستأنف حياته معها . ولكن ذلك لم يتح له .

فما هي إلا أيام قلائل حتى جاءه نبأ بأن الحكومة المصرية الإقطاعية أمرت بمصادرة كتبه والحيلولة بينها وبين الناس لأنها رأت في تهجمه على الإقطاعيين وفي حملته على الحكام دعوة تخريبية خطرة ولم يمض على ذلك النبأ أيام أخرى حتى لحقه نبأ آخر بأن الحكومة وجهت إليه تهمة الاشتراك في اتفاق جنائي لقلب نظام الحكم الملكي والإساءة إلى سمعة البلاد .

وأثارت هذه الأنباء الفزع والجزع والاضطراب في نفسه وحاول أن يفهم المصدر الذي دفع الحكومة إلى تلفيق هذه التهمة له وغضبها عليه فلم يجد إلى ذلك سبيلا ، صحيح أنه كتب بعض مقالات عنيفة تفضح مساوئ الرجعيين والإقطاعيين والمتجرين بالسياسة ولكنها لم تكن تستهدف أي تحريض يعاقب عليه القانون وإنما كانت تستهدف تبصير المصريين بحقائق أمورهم وتنبيه الطغاة والبغاة إلى عواقب بغيهم وجورهم ومناوءتهم أماني الشعب واستهتارهم بحقوقه ، فلماذا فزعت الحكومة كل هذا الفزع الآن ولماذا اختارت هذا الوقت بالذات لتبطش به

وتنكل بكتبه كل هذا التنكيل . ونشطت روحه فى اليوم التالى فكتب مقالا ناريا فى إحدى الصحف اللبنانية تهجم فيه على حكام الإقطاع فى مصر وكان من بين ما قاله فى هذا المقال :

« لقد كفر حكام الإقطاع والرجعية بهذا الشعب حين اختطوا لبلادنا السياسة الذليلة التى أملتها عليهم ضمائرهم المدخولة إرضاء لأسيادهم المستعمرين ، ولذلك وجب على الشعب أن يثور لإنقاذ البلاد من رجس المستعمرين وأعوانهم وتطهيرها من الحكام الأشرار وخبراء الفساد الذين عبثوا بكل القيم وعرضوا الوطن لأشد أنواع المحن والبلايا والشرور . .

وقضى نبيه أيامه بعد ذلك خائفاً يترقب فقد كان يعلم بما لا يدع مجالا للشك أن رجال الحكم الإقطاعى تخصصوا فى أساليب المؤامرات أكثر مما تخصصوا فى فن الحكم وأنهم ما داموا قد قرروا التنكيل بكتبه فإنهم لن يتوانوا عن التنكيل به والتخلص منه بوسيلة من وسائلهم الجهنمية ، ولما اشتد إحساسه بالخطر هرب إلى سوريا وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان شأن كل رجل مطارد .

ولما بلغ ليلى نبأ اتهام نبيه بتدبير مؤامرة ضد نظام الحكم الملكى ثم نبأ هربه واختفائه فى لبنان وسوريا اعتراها شبه ذهول ،

ومع أن إحساسات شتى تعاورت قلبها إلا أن إحساس القلق والإشفاق غلبها جميعاً ، على أنها حين خلت إلى نفسها وفكرت فى الأمر مليا شعرت كأن شيئاً يصدها عن الاسترسال فى الإشفاق والخوف والقلق صدا ، ويصرفها عنها صرفاً ، وكان هذا الشيء هو شعورها بأن ما حدث لزوجها ليس إلا جزاء عادلا أنزله به القدر عقاباً له على موقفه الظالم الذى وقفه منها فى لبنان ، وأن نزول العقاب على هذه الصورة ما هو إلا تدبير دبره القدر لإخفاء أمر انفصالهما وطمس معالم خطيئتها وتبديد الضباب الحالك الذى كان يعقد طبقاته حولها ، وكان هذا الشعور مبنيا على اعتقادها بأن جميع هذه الخطوب والأسرار ستظل مجهولة لدى الناس ، لأن أحداً لا يستطيع بعد أن تزوجت أن يعرف مكنون سرها الذى عرضها للبؤس والشقاء وإنما سيعرفها الجميع على أنها زوجة شريفة لا يشوب شرفها أى شائبة .

على أن هذه الراحة لم يقدر لها أن تدوم طويلا إذ ما لبث أن لاح لها شبح الإملاق واضطرت لكى تحتفظ بمكانتها واحترامها فى نظر أبيها وامرأته وبناتهما أن تسحب المبلغ الذى أودعه لها زوجها فى البنك لتنفقه على مطالبهم ثم باعت عقدها

الماسى وأنفقت ثمنه عليهم أيضاً ، ولما نفذ ثمن العقد وشعرت بضيق امرأة أبيها بها وتبرمها من وجودها انتقلت إلى منزل خالتها وأقامت فيه ، وظلت سجينة هذا المنزل أياماً لا تريمه حتى لا ترى أحداً ولا يراها أحد .

وذات صباح وهى مشغولة بترتيب المنزل وتنظيفه بعد خروج خالتها وزوجها بلغ سمعها دق غير مألوف على الباب فتركت ما بيدها وذهبت لترى الطارق ولم تكد تفتح الباب حتى تراجعت خطاها ، ذلك أنها تبينت فى الطارق نفس المرأة الغريبة التى أوفدها إليها شكرى من قبل . وابتسمت المرأة وقالت :

— صباح الخير يا ليلى ، لقد جئت أزورك وأستفهم إن كنت بخير ، وقد حدست أنك ستعودين إلى هنا بعد هرب زوجك ، أتسمحين لى بالدخول ؟ . . .

فرمقتها ليلى بنظرة حادة وقالت :

— ماذا تريدين ؟ . . .

فأجابتها فى هدوء :

— أريد أن أسر إليك نبأ .

فغمغمت ليلى فى قلق وتخاذل :

ـ أى نبأ ؟ . . .

ـ نبأ هام يخصاك ، هل لنا أن نجلس قليلا ، إننى أعرف أنك وحدك الآن لأننى كنت أراقب منزلك منذ ساعة . .

فحملقت فيها ليلى عاجبة وقالت فى ضيق :

ـ تراقبين منزلى ! وبأى حق تفعلين ذلك ؟ . .

ـ بحق الصلة التى تربطنا بك يا ليلى ، ألا يجدر بالصديق أن يكون وفيا لصديقه وأن يكون فى وقت الشدة إلى جانبه . .

وسكتت لحظة ثم استطردت تقول وهى تدلف إلى الداخل :

ـ لقد طلب منى شكرى بك أن أزورك لأوفر لك كل ما تحتاجين إليه . .

ولم تنتظر جواباً وإنما تقدمت إلى مقعد وجلست وأشعلت لفافة ثم تابعت كلامها قائلة :

ـ يالك من فتاة مجدودة ، لقد هززت فى شكرى بك وتراً خفيا لم يهتز من قبل لامرأة أخرى . .

فتضرج وجه ليلى وقالت فى غضب :

ـ ما هذا الذى تقولين ، إن كلامك جرأة لا تغتفر . .

ـ إننى أعترف أنها جرأة ولكن ما حيلتى معك يا ليلى ، إننى لم أر فتاة فى مثل عنادك ، لو كنت مكانك لاعتبرت

نفسي أسعد امرأة في الوجود ، وماذا تريد المرأة أكثر مما يعرضه عليك شكري باك ، ستنزلين في قصر خاص في المعادي ، وسيكون لك أصونة تزخر بغالي الثياب ، وخدم كثيرون يأتمرون بأمرك ، وسيارات فخمة رهن إشارتك ، وستقضين معه أطيب الأوقات وأجمل السهرات وحولكما ما لذ وطاب من طعام وشراب ، كل شيء سيكون وفق مرامك ، وكل مباهج الحياة ستكون بين يديك تعبين من متعها كما تشائين ، فماذا تريدين يا ليلى أكثر من ذلك ؟ . .

فقالت ليلى في أنفة وامتعاض وازدراء :

ـ ما أسخفك ، ماذا تظنين بي ، أتظنين أنني انحللت إلى درجة أن أرضى لنفسي هذا المصير . .

فتجهم وجه المرأة وقالت في غيظ :

ـ أنت جاهلة غافلة عن مصلحتك وسوف تعيشين معه أردت أم لم تريدي . . .

فانتفضت ليلى وصاحت مدفوعة بسورة الغضب والألم :

ـ إنني لن أصبر على هذه القحة ، اغربي عن وجهي . .

فنهضت المرأة واقفة وقالت بلهجة حافلة بالوعيد :

ـ أنت وشأنك ، لقد أديت واجبي ولست مسئولة عما يحدث

لك بعد ذلك . .

فأجابتها ليلى فى غير مبالاة :

ــ ليحدث ما يحدث ، لست أبالى . .

فقالت الأخرى وهى تتهيأ للخروج :

ــ تذكرى أنك الآن فى خطر لأن الحكومة لم تنس بعد أنك زوجة الرجل المتآمر عليها وليس هناك من تستطيعين الاعتماد عليه لحمايتك سوى شكرى باك . .

فقالت ليلى فى إصرار :

ــ لست أبالى هذا أيضاً . .

ولما حاولت المرأة الكلام صاحت فيها ليلى وهى تشير إلى الباب :

ــ كفى ، لا تزيدى كلمة واحدة ، اخرجى . .

وعندما ذهبت المرأة إلى شكرى وأخبرته بما حدث بينها وبين ليلى ألقى بنفسه على الأريكة فى ضجر وقد اختنقت فى صدره زفرة فعجبت المرأة لأمره وقالت متسائلة :

ــ علام كل هذا الحزن يا شكرى بك ، بوسعنا أن نختطفها عنوة ونأتى بها إلى هنا صاغرة . .

فقال فى مرارة وأسى :

ـ لا . . لا ، إننى لا أحب أن تأتى إلى هنا قسراً .

ـ ولماذ ؟ . .

ـ لأننى أحبها يا بهيجة ولا أريد أن أقنع منها بجسدها وإنما أريد أن أفوز بحبها ورضاها . .

فابتسمت المرأة وقالت مداعبة :

ـ ويلنا منكم معشر الرجال ، فكم فى طبعكم من غرائب ومتناقضات ، إذا أحببناكم ازدريتمونا ، وإذا أهملناكم ارتفعنا فى عيونكم وأصبحنا كل شىء فى حياتكم . .

فقال متبرماً :

ـ دعى هذا المزاح يا بهيجة فليس هذا وقته ، تقولين إنها على علم بكل ما حدث لزوجها ؟ . .

فقالت المرأة جادة :

ـ نعم ، إنها تعرف كل شىء . .

فأطرق حيناً ثم قال :

ـ ولكنها بالطبع لم تشتبه فى أن لى دخلا فى الموضوع ؟ . .

ـ بكل تأكيد ، وأنّى لها أن تعرف أنك صاحب هذا التدبير . .

ففكر قليلا ثم قال :

ـ حسناً ، والآن يجب أن نفكر فى وسيلة أخرى لإقناعها بالانضمام إلينا . .

ـ ماذاتقترح على أن أفعل ؟ . . .

ـ أقترح أن تكفى الآن عن مراقبتها . .

ـ أليس فى وسعى أن أسدى خدمةأخرى .

ـ لا ، ليس الآن ،إننى أفضل أن نستعين بفاطمة علوان لإقناعها لأن تأثيرها على أمثال هؤلاء المراهقات عجيب .

فقالت المرأة :

ـ أتظن أن فاطمة تستطيع القيام بهذه المهمة بسهولة مع فتاة عنيدة مثل ليلى . .

ـ أعتقد أن ذلك ليس بالأمر العسير على فاطمة ، إنها أصلح من تقوم بهذه المهمة لأن أحداً لا يرتاب فيها . . .

الفصل الثالث عشر

وكانت فاطمة علوان سيدة فى السادسة والأربعين من عمرها تناقضت فى وصفها الآراء فمن يجهلونها يصفونها بالنبل والنقاء والكرم والمروءة ويعتبرونها سيدة المجتمع الراقى ، أما عارفوها من أمثال شكرى وندمائه فيصفونها بالمكر والدهاء وسعة الحيلة ويعتبرونها من أعظم أدوات الشر التى يمكن الاعتماد عليها فى تحقيق المآرب البعيدة المنال .

وكانت فاطمة فى صباها فاتنة لعوب خلبت عقول كثير من الشباب والرجال ثم تولت عنها الدنيا حين دخلت فى الشيخوخة ، وكانت خليقة أن تضطر إلى بؤس شديد لولا أنها التقت بشكرى فضمها إلى بطانته وأسس لها جمعية حواء الجديدة فتعرفت بكثير من العلية من رجال الدولة ومن رجال الأدب والفن مما زاد فى معرفتها بأحوال العهد البائد وما فيه من آراء واتجاهات وميول ، ومقدرتها على تعرف أهواء كل من تلقاه من الرجال على اختلاف أعمارهم ومراتبهم فى الحياة . وأصبحت فاطمة بعد ذلك الأداة التى تحطم كل ما يعترض شكرى من صعاب ،

وتذلل جميع ما يعوقه عن بلوغ المآرب والآمال ، وتهيئ له كل الأسباب ، وتفتح له جميع الأبواب .

وعندما حضرت فاطمة لمقابلة شكرى بعد انصراف بهيجة أسرع للقائها ثم انفرد بها فى مكتبه وشرح لها موقف ليلى منه ، وكانت فاطمة تستمع إليه فى اهتمام وإنصات واع فلما أتم كلامه قالت باسمة :

ــ عجيب أنت يا شكرى بك . أتحب ليلى إلى هذا الحد؟

فتنهد تنهدة كبيرة ملء جسمه الضخم وقال :

ــ إننى أحبها إلى درجة الجنون يا فاطمة .

ــ لم أكن أتوقع هذا أبداً .

ــ الحق أننى لم أكن أتوقع أن أحبها كل هذا الحب ، لست أدري كيف وقعت فى غرامها بهذه السرعة ولكنى بذلك جد سعيد . .

ــ لعل السبب فى ذلك راجع إلى إعراضها عنك . .

ــ هذا صحيح ، ولكن من الصحيح أيضاً أنها تحوى كل مزايا النساء وكل ما أرجوه من المرأة .

ــ أراك تبالغ .

ــ لست أبالغ مطلقاً يا فاطمة ، إنها أجمل وأشهى امرأة

قابلتها فى حياتى . .

فقالت مداعبة :

ــ هذه إهانة لنا وقسوة علينا . .

ــ بالله دعك من هذا الهذر ، ألم تقولى مراراً إنلك تحبين أن تريني شهيداً من شهداء الغرام .

فقهقهت ضاحكة وقالت :

ــ آه ، إذن فأنت تعترف بأنلك أصبحت متيماً تؤمن بالحب وتكتوى بناره .

ــ نعم يا فاطمة ، والويل لى إذا لم تجدى لى طريقا للوصول إليها ، فما رأياك ؟ .

ــ هذه مشكلة سهلة . .

ــ أتظنين ذلك ؟

ــ بكل تأكيد ، أنت طبعاً لا تستطيع أن تتزوجها زواج شرعيا لأنها ما زالت على ذمة زوجها ولأنك فى الوقت نفس لا تستطيع إغضاب زوجتلك ، وما دامت بهيجة كما قلت قا استنفدت كل وسائلها مع ليلى فلست أعتقد أننى سأصادف نجاحاً يذكر لا سيما وأن ليلى لم تنس بعد أننى التى قدمت إليلك ، وأمام هذا كله أقترح أن تلجأ إلى وسيلة أخرى . .

فقال فى لهفة :

ـ ما هى ؟ . . .

فسكتت لحظة ثم قالت :

ـ هى أن نلجأ إلى رفعت باشا لعله يستطيع بنفوذه الحكومى الكبير أن يفصل والد ليلى من وظيفته ويزج بزوج خالتها فى السجن لسبب أو لآخر ويأمر بالتحفظ على أموال نبيه فى البنوك ، وبذلك تصبح ليلى وحيدة لا عائل لها أو نصير يمكنها الاعتماد عليه . .

ـ هذه فكرة بديعة ، أرجو أن تشرحى لى الوسيلة التى تقترحينها للتنفيذ . .

ـ أقترح أن نلفق للرجلين تهمة الاشتراك مع نبيه فى المؤامرة على قلب نظام الحكم وذلك عن طريق دس بعض المنشورات فى منزل كل منهما . .

فقال وفى عينيه لمحة من الإعجاب والتقدير :

ـ بديع ، بديع جدا يا فاطمة ، ما من أحد يجيد حبك المؤامرات كما تجيدينها أنت .

ولم يكن شكرى مغالياً فى تقديره فقد كانت فاطمة من أبرع النساء فعلا فى حبك المؤامرات والدسائس تسلك إليها

طرقاً مختلفة لا يحسن العلم بها إلا الذين محصتهم الحياة وعلمتهم التجارب ، من ذلك أنها أشارت على أحد كبار الإقطاعيين يوماً أن يزج بأحد الشبان فى مستشفى المجاذيب بتهمة الجنون ليخلو له الطريق إلى زوجته الحسناء التى أعيته جميع الحيل فى سبيل الوصول إليها ، فلما نجحت الخطة كافأ فاطمة بخمسمائة جنيه ومنحها كثيراً من التحف والهدايا الثمينة .

ولما انصرفت فاطمة أغمض شكرى جفنيه واسترسل فى التفكير ، ثم أشعل لفافة وراح يدخنها فى لذة فما كان يطمع أن تسير الأمور بأيسر من هذا ، ومضى اليومان الأولان وهو يشترك مع رفعت باشا وفاطمة فى تهيئة الخطة ويتبادلون الرأى فى تدبير أسباب النجاح لها ، وبعد أسبوع كان كل شىء قد نفذ وفقاً للخطة فاعتقل زوج خالة ليلى وألقى به فى غياهب السجون وكذلك اعتقل أبوها وفصل من وظيفته فى الحكومة ، وتحفظت الحكومة على أموال نبيه المودعة فى البنوك .

ولما علمت ليلى بما انتهى إليه أمر والدها وزوج خالتها فزعت فزعاً شديداً وأظلم وجهها ودفنت وجهها فى حجر خالتها وقالت وهى تنتحب :

– ماذا نفعل ، ماذا يكون حالنا بدونهما .

فأفاقت خالتها من وجومها ومسحت بيدها الواهنة على رأس ليلى وقالت :

ـ تشجعى . . . تشجعى يا ليلى ، هذه إرادة ربنا يا بنتى . . .

فشهقت ليلى قائلة :

ـ أنا المسئولة ، أنا التى جلبت عليكم كل هذه المصائب ، أنا الملومة لا ملوم غيرى .

ـ لا تقولى هذا الكلام . . . وما ذنبك يا ليلى .

فنهضت ليلى ومشت نحو النافذة وقالت :

ـ ماذا أفعل . . . ماذا أفعل يا رب . .

فقالت خالتها وهى تجفف دموعها :

ـ ليس لك ما تفعلين سوى أن تظلى معى وتقاسمينى معيشتى . .

فأجابتها ليلى قائلة :

ـ إننى أوثر أن أبحث عن عمل نرتزق منه ، يجب أن نلبس لكل حالة لبوسها . .

ـ الأمر إليك يا ليلى . .

ـ أليس فى رأسك فكرة معينة ؟ .

ــ من رأيى أن تذهبى إلى ناظرة مدرستك وتطلبى معونتها فلعلها تستطيع أن تلحقك بوظيفة كتابية بمدرستها . .

فترددت ليلى قليلا ثم قالت

ــ أنا لا أحب أن أفعل هذا ، ولكنى سأذهب . .

وفى اليوم التالى نهضت مبكرة وذهبت إلى المدرسة . وعندما قابلت الناظرة وقصت عليها قصة فرار زوجها وما نزل بوالدها وزوج خالتها وما انتهى إليه أمرها قالت الناظرة فى ألم وتأثر :

ــ مسكينة يا ليلى ، كم أرثى لحالك . .

فطأطأت رأسها ومسحت دموعها بيد ترتجف وقالت :

ــ أنا لا أفكر فى أمرى ولكن أفكر فى أمر عائلتى التى نكبت بسببى . . .

فتأثرت الناظرة أيما تأثر وقالت :

ــ لا تحزنى يا ليلى ، سأحاول أن أصنع شيئاً .

وفكرت قليلا ثم قالت :

ــ أعتقد أننى أستطيع أن أجد لك عملا ، ولكن اسمعى يا ليلى ، يجب ألا يأتى اسم زوجك على لسانك أبداً ، أى يجب ألا يعرف أحد أنك زوجة نبيه المنفلوطى وإلا ساءت العاقبة ،

فهل تعدينني بذلك ؟ . . .

ــ نعم أعدك ، وأعدك أيضاً بأن أخفى مقر عملى عن الناس جميعاً حتى لا يهتدى إلى أحد .

ــ حسناً ، سوف أتصل الآن بابنة خالتى فى الزيتون لتلحقك بوظيفة كتابية فى مؤسسة البنات الكفيفات التى تديرها وتشرف عليها بنفسها ، وأعتقد أنها ستقبل ذلك عن طيب خاطر لأنها فى حاجة إلى سيدة تقبل السكنى فى القسم الداخلى مع نزيلات المؤسسة ، أتوافقين على ذلك ؟ .

فقالت ليلى فى غبطة :

ــ لست أطمح إلى خير من ذلك . .

فانحنت الناظرة على آلة التلفون واتصلت بابنة خالتها وأنهت إليها الأمر فوافقت فى الحال وأعلنت سرورها بقبول ليلى نظير مرتب قدره عشرة جنيهات فى الشهر علاوة على المأكل والمسكن ، وهكذا بت فى الأمر. ورحلت ليلى فى اليوم التالى إلى الزيتون وتسلمت عملها الجديد وقد وطدت العزم على توزيع مرتبها توزيعاً عادلا بين خالتها وعائلة أبيها لمساعدتهم فى ظروفهم التعسة والقنوع بالقليل الذى يكفى لشراء الحاجات الضرورية لنفسها .

وأقبلت ليلى من اليوم الأول على عملها وهى ممتلئة عزماً وإقبالا على الحياة ، ولكن أمور الحياة لم تشأ أن تمضى كما أرادت فما هى إلا أيام حتى أحست جنيناً يتحرك فى أحشائها ولم تكن تعلم أنه يتكون فى أحشائها بعد اعتداء شكرى المنكر عليها لكثرة ما صادفته فى حياتها من خطوب وأهوال ، فلما أحست به داهمها شعور مروع بالخزى والعار ولم تدر ماذا تفعل ، صحيح أنها قادرة على أن تنسب هذا الجنين إلى زوجها نبيه أمام الناس وهى فى أمان من افتضاح أمرها بعد نفى زوجها وانقطاع الأمل فى عودته إلى مصر ، ولكنها فتاة نقية دينة تخشى محكمة الضمير وتحترم الدين وتحترم زوجها وتحترم نفسها ، وترى أن الواجب هو أن تظل محترمة للحق وللدين وللضمير ولنفسها ، وإذن فيجب أن تقاوم هذا الخاطر وفاء للحق وللدين ولكرامتها ، وبينما هى فى هذا الجهاد العنيف إذ تعلم شيئاً يزيد هذا الجهاد عنفاً ، تعلم أن شكرى وأعوانه قد انتشروا فى كل مكان بحثا عنها فاعتراها شعور معقد من الخوف والخزى والحذر والتوجس وقضت أيامها حائرة خائفة تخشى أن تترك المؤسسة فيراها شكرى وأعوانه ، وتخشى أن تكاشف المديرة بأسرارها فيسوء ظنها بها وربما طردتها من عملها طرداً .

ولم يكن الجنين يعلم أنه يتكون فى أحشاء أمه على غير إرادتها ولم يكن يعلم أنها لا تتمنى شيئاً فى الحياة كما تتمنى أن يموت قبل أن يخرج إلى الوجود ، ومن ثم أخذ يكبر وينمو ويترعرع على الرغم منها حتى اكتمل وتهيأ للنزول إلى الحياة . ولما اقترب ميعاد الوضع طلبت ليلى إجازة وتركت المؤسسة وخرجت إلى الشارع لأول مرة منذ شهور وقصدت إلى دار خالتها وهى تشعر بالذل والخوف والهوان .

واستقبل أهل المنزل الطفل بالترحيب ظنا منهم أنه من صلب نبيه أما ليلى فقد استقبلت وليدها بكراهية شديدة ومقت عظيم وعندما دفعته خالتها إليها لتراه ارتعد جسمها لمرآه إذ كان بحاجبيه المقرونين وجبهته المفلطحة وعينيه المتباعدتين صورة طبق الأصل من شكرى فداخلها شعور شديد من الانقباض وغشيتها لجة من الغم ، وأصبح هم فؤادها أن تتخلص من إثمها بالتخلص من الطفل بأى طريقة من الطرق تفادياً لما سيجره عليها بقاؤه على قيد الحياة من نوائب وآلام ومحن .

ثم جاءت الساعة التى لم تستطع لها تأخيراً ، الساعة التى قهرت عاطفة البغض والكراهية كل عاطفة أخرى فى نفس ليلى وملكت عليها كل أمرها وصرفتها إلا عن التفكير فى

الخلاص من هذا الطفل المخيف البشع الذي أرقها وعذبها وملأ قلبها هما وخوفاً وفزعاً . فبعد أيام من ميلاد الطفل انسلت ليلى من المنزل تحت جنح الظلام وعلى ذراعها ابنها وقصدت إلى كوبرى امبابة وقد امتلأ صدرها كراهية لا سبيل إلى كبتها ، وكانت تلبس جلباباً سميكاً فضفاضاً وشالا أسود اللون لتتقى به شر البرد وأعين المتطفلين ، وعندما وصلت إلى الكوبرى حملت الطفل فى جنون ثم أغمضت عينيها وقذفت به إلى الماء ، ولم تكد تفتح عينيها حتى رأت جندياً يخرج من الظلام ويسرع فى المسير نحوها فاعتراها فزع شديد وعولت على الفرار ولكنها ما كادت تعدو قليلا حتى أسرع ولحق بها وقبض على ذراعها وهو يصيح :

— ماذا فعلت يا شريرة . . . لقد رأيت كل شىء بعينى .

فقالت فى استعطاف وهى ترتعد :

— أرجوك . . . أتوسل إليك ، بالله دعنى .

فصاح مزمجراً :

— مستحيل . . . مستحيل . .

وأقبل على صوت هذه الجلبة بعض المارة ولما عرفوا جلية الأمر أسرع بعضهم للبحث عن جثة الطفل بينما تجمهر

الآخرون حول ليلى وأخذوا يحدقون فى وجهها وهم يتهامسون :

ــ ابن حرام . .

ــ طبعاً وإلا لما قتلته . .

ــ يالها من متوحشة . .

وتبعت ذلك لحظات كلها أهوال ولم تجد ليلى ما تقوله أو تفعله بعد انتشال جثة الطفل وزجر الشرطى قائلا :

ــ امشى قدامى . .

فسارت أمامه وقد تخاذل ساقاها من فرط الإعياء . ولما وصلت إلى القسم لم تستطع الكلام أمام الضابط من هول الموقف وسد الفزع مسالك تفكيرها فلم تعرف ماذا تفعل وماذا تقول ، ولكن فكرة خطرت لها فجأة فرأت بصيصاً من نور الأمل فى نجاتها أو هكذا خيل إليها فى ساعة محنتها فقالت ردا على سؤال الضابط :

ــ إنه ابنى . .

ــ ومن أبوه . .

ــ زوجى . .

ــ زوجك ! ومن يكون زوجك . .

ــ الأستاذ نبيه المنفلوطى .

فقال فى دهشة :

ـ نبيه المنفلوطى ! ! الصحفى الهارب ؟ . .

ـ نعم . .

ـ ولماذا قتلت ابنه؟ . .

ـ لأنه كان مريضاً فأردت أن أريحه .

ـ ياللك من حمقاء ، أتظنين أن ذلك سينجيك من العقاب ، لقد ارتكبت جريمة منكرة وقتلت نفساً بريئة . .

وبعد أيام قدمت ليلى إلى المحاكمة وفى الموعد المحدد لنظر قضيتها غصت القاعة بجمهور كبير من الناس كان شكرى وصابر من بينهم ، فلما دخلت ليلى اشرأبت إليها الأعناق وامتلأت القاعة بالهمس، ومشت ليلى إلى قفص الاتهام بثبات ورباطة جأش عجيبة ولما وقع بصرها على شكرى نظرت إليه نظرة قصيرة ولكنها كانت مشحونة بالاحتقار والحقد والكراهية ، وبعد لحظات دخلت هيئة المحكمة ولما استقر أعضاؤها فى أماكنهم سألها الرئيس عن التهمة الموجهة إليها فكررت اعترافها الذي ورد على لسانها فى التحقيق ثم أجابت عن سؤال آخر بقولها :

ـ لقد قتلته رحمة به لأنه كان مريضاً . .

ــ أما زلت مصرة على هذا الرأي رغم أن تقرير الطبيب الشرعى أثبت خلاف ذلك .

ــ نعم ، ولن أغير مما قلته شيئاً . .

ــ أليس لديك أقوال أخرى ؟ . .

ــ كلا ، ليس لدى كلام آخر .

أما المحامي الذى عهد إليه بالدفاع عنها فقد دافع عنها دفاعاً قويا وعزا تصرفها إلى رغبتها فى قطع كل صلة تربطها بزوجها الخائن عدو المجتمع وطالب بتخفيف العقوبة مراعاة لظروف المتهمة .

وانتهت المحاكمة فى النهاية وأصدر القاضى حكمه بسجنها أربع سنوات ، وعندما سيقت إلى الخارج هرول شكرى فى أثرها وقال لها :

ــ ليلى ، كلمة واحدة . .

فتجاهلته ومضت فى سبيلها فجرى وراءها وقال :

ــ لماذا فعلت هذا يا ليلى ؟ . .

فأشاحت عنه ولم تتكلم فقال :

ــ ليلى ، خبرينى ، أهو . . .

فقاطعته فى غضب :

ــ دعني وشأني .

فتراجع عنها إلى حيث كان يقف بعض أعوانه ثم مشى معهم إلى الخارج وقال وهو يهم بركوب سيارته :

ــ أعتقد إنه ابنى . .

فسأله أحدهم :

ــ هل أخبرتك بذلك ؟

ــ كلا ، ولكنى قرأت ذلك فى عينيها . .

ولم تكد ليلى تسير بضع خطوات أخرى حتى لحق بها صابر ولما التفتت إليه تقدم نحوها وقال بصوت متهدج حافل بالألم والحسرة :

ــ هذا شيء مؤلم يا ليلى ، مؤلم أشد الإيلام ، أخبريني ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك ؟ . .

فقالت خافضة البصر ساهمة :

ــ لا شيء يا صابر ، لا شيء ، أشكرك .

فقال بصوت مختنق :

ــ أنا شاب بائس محطم ولكنى قد أستطيع أن أفعل شيئاً تجدين فيه نفعاً . .

فحدقت فيه تتفحصه وتتأمل ما يدل عليه مظهره من

متاعب نفسية ومادية ثم همهمت قائلة :

ـ أشكرك على شعورك النبيل يا صابر ، ولئن افترقنا فقد عرفت فيك كيف يكون الصديق .

ثم تركته ومضت بقدم ثابتة مع حراسها فسقطت منه دمعتان وظل يشيعها صامتاً حزيناً حتى اختفت عن الأنظار .

الفصل الرابع عشر

وقضت ليلى فى السجن أياماً سوداء كلها رعب ورهبة ويأس وأسى ، وكانت رئيسة الحراس امرأة جبارة بالغة القسوة اعتاد الناس أن يشتروا رضاها بالطرف والهدايا فلما قدمت ليلى استقبلتها أول الأمر استقبالا حسناً وظلت تحسن معاملتها زمناً ولما طال إبطاء ليلى وأهلها عليها بالرشوة انقلبت عليها وأذاقتها من العنت فنوناً وألواناً وصبت عليها العذاب صباً .

ومضت أيام وتلتها أيام وليلى حبيسة السجن لا يغمض لها جفن ولا يستريح لها جنب ولا يداعب خيالها أمل ، وأى أمل لفتاة وحيدة بائسة لا تملك من شئون حياتها شيئاً بل لا تكاد تملك من ذات نفسها شيئاً ، ولما تضاعف شقاؤها واشتد إيذاء رئيسة الحراس لها راحت تناجي ربها وتستلهمه الصبر على ما نزل وينزل بها من كرب ، وتشكو إليه همها وتدعوه أن يزيل عنها غمها وعذابها ، ومرت بها أيام أحست خلالها أنها أقرب ما تكون قرباً من الله ثم مرت بها أيام أخرى فقدت فيها هذا الشعور ، وتعاورها هذا الإحساس حتى جفت روحها وأظلمت

الدنيا فى وجهها ، وإنها لتناجى ربها ذات يوم وإذا بسجينة جديدة تقترب منها وتقول لها هامسة :

ـــ صباح الخير ، أأنت ليلى عمار ؟ . . .

فارتسم الاضطراب على وجه ليلى وقالت :

ـــ نعم . .

ـــ هذا ما حدثت نفسى به عندما رأيتك أول مرة . .

قالت ذلك وهى تمعن النظر فى وجهها الشاحب الحزين واستطردت :

ـــ هذا عجيب فوق ما أتصور . .

ـــ ماذا تعنين ؟ . .

ـــ أعنى أننى لم أتوقع أن تكونى على هذا القدر من الجاذبية ، لقد أدركت الآن لماذا هو متيم بك كل هذا التتيم .

فأجفلت ليلى وقالت :

ـــ من تقصدين ؟ . .

ـــ أقصد شكرى بك طبعاً ؟ . .

فرددت عبارتها فى جزع :

ـــ شكرى بك ؟ . .

ـــ نعم يا ليلى ، إنه ما زال مشغوفاً بك لدرجة الجنون ،

وقد أرسلنى لأمهد لك أسباب الراحة هنا . . .

فقالت ليلى فى حدة :

ـ إننى لست محتاجة إليه . .

ـ لا تكونى حمقاء ، لماذا لا تقبلين مساعدته ، إنلك أحق الناس أن يؤدى واجبه نحوك . .

فأجابتها فى حنق :

ـ إننى لست فى حاجة إليه ، وأرجو أن تكفى عن الكلام عنه . .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنك لا تعرفين أى ضرر أنزله بى . .

ـ إننى أعلم كل شىء ، وأعلم أيضاً أنه يحبك ويود من صميم قلبه أن تنضمى إلينا بعد خروجك من السجن .

ـ أنضم إليكم ! !

ـ نعم يا ليلى ، إننا قوة كبيرة يخشاها كل الناس . .

ـ ماذا تعنين بذلك ؟ .

ـ أعنى أننا عصبة لا يحد سلطتها قانون ، إننا بزعامة شكرى بك نهيمن على كل شىء فى الدولة بفضل أعواننا

الأقوياء داخل الحكومة وخارجها .

— هراء ، لا تحاولي خداعي . .

— إنني لا أحاول خداعك ، ستعرفين كل شيء بنفسك حالما تنضمين إلينا .

— إنني لن أنضم إليكم بحال من الأحوال . .

— ولماذا يا عزيزتي ، إننا أسعد أهل الأرض طرا لأن في وسعنا أن نعيش كما نريد ، أراك تهزين كتفيك استخفافاً ولكني صادقة في قولي ، إننا نعيش عيشة مترفة ولنا في قصورنا كل ما في قصور الأمراء من مظاهر النعيم ، إن القدر يقف دائماً في صفنا بينما يكيد لغيرنا ممن يتشدقون بالمثل والمبادئ ويتعقبهم في غير رحمة أو شفقة، والخير لك أن تكوني فرداً منا لتنعمي بجمالك وشبابك بدلا من تبديدهما في هذه الأوهام التي لا طائل تحتها والتي لم تعد تصلح لهذا الزمن . .

— لا تقولي مثل هذا الكلام أمامي ، أرجوك ، أنا فتاة متدينة مؤمنة وإيماني لا يرضى ولن يرضى بما تحاولونه معي . .

— إننا نحاول أن نجعلك سعيدة ولكنك تتصرفين كطفلة عنيدة حمقاء ، أتعرفين ما سوف يحدث لك إذا تخلى شكري بك عنك هذه المرة.، إن حياتك هنا ستتحول إلى جحيم لا يطيقه

بشر وستصبحين بعد أشهر قليلة حطاماً محطماً أما إذا قبلت الانضمام إلينا بعد خروجاك فستعاملين هنا أحسن معاملة وستنالين كل اعتبار ، فماذ أنت قائلة ؟

فارتعدت ليلى خوفاً من هذا التهديد وتصدعت إرادتها وانهار تصميمها ، وإذ كانت تعلم حق العلم أن شكرى يستطيع بنفوذه أن يسلط عليها رئيسة الحراس لتسومها سوء العذاب ، لم يسعها إلا أن تتخيل ما عسى أن يؤدى إليه إذعانها لمشيئته وقبولها ما عرضه عليها ، إن ذلك لا شك يستنفدها دفعة واحدة من خوفها لا من رئيسة الحراس فقط بل من هذه الدنيا التى تنكرت لها وناصبتها العداء دون مبرر . .

ولما شعرت المرأة بتخاذل ليلى قالت لها فى رقة :

— إن شكرى باك يا ليلى رجل عطوف كريم يكن لك فى نفسه مكانة لا يعز معها أى مطلب تريدينه ، وهو فى حاجة إليك لتكونى بجواره ، فإذا وافقت غمرك برعايته داخل السجن وجعلك فى رغادة من العيش حتى يطلق سراحك . .

فأطرقت ليلى ساهمة والأفكار تلتطم فى رأسها ولما طال سكوتها قالت المرأة :

— هيه يا ليلى ، على ماذا استقر رأيك . .

فرفعت رأسها وقالت وهى تلهث :

ـ هبى إننى وافقت فماذا يكون موقفى من زوجى . .

فابتسمت المرأة ابتسامة شاحبة وقالت :

ـ لا تخافى ، إن زوجاك لن يعود إلى مصر أبداً ، وإذا عاد فمصيره السجن المؤبد أو الإعدام .

فارتعدت ليلى فى مكانها وقالت :

ـ أتظنين ذلك . .

ـ بكل تأكيد . .

ـ ألا يمكن أن تأتى حكومة أخرى فتعفو عنه . .

ـ هذا مستحيل . .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه متهم بالتآمر على قلب نظام الحكم الملكى ، ونظام الحكم الملكى باق فى مصر إلى الأبد ولا يمكن أن يتغير بتغير الحكومات ، ومعنى ذلك أن زوجاك لن يستطيع العودة إلى مصر ولن يستطيع لك ضرا إلا إذا تغير نظام الحكم وهذا من رابع المستحيلات . . .

فصمتت ليلى برهة وجعلت تعبث بحاشية ثوبها الخشن ، ثم قالت وقد غاب عن ناظريها فجأة الإيمان بالدين والدنيا معاً .

ـ إخالك على صواب ، أنا موافقة . .

فقالت المرأة فى ابتهاج فياض :

ـ برافو . . . برافو يا ليلى ، لقد كنت واثقة أنك ستوافقين ، أتسمحين لى بالذهاب لأنهى الخبر إلى شكرى بك تلفونيا . .

ـ تفضلى . .

فربتت المرأة على خد ليلى وقالت :

ـ إن شكرى باك سيطير من الفرح عندما يعلم بهذا الخبر وسيأمر بأن يوفر لك كل ما تحتاجين إليه هنا . .

وانطلقت المرأة على أثر ذلك إلى غرفة رئيسة الحراس ، وبعد ذلك بربع ساعة عادت إلى ليلى وفى صحبتها رئيسة الحراس وكانت فى هذه المرة جمة الأدب بالغة اللطف ، وتقدمت رئيسة الحراس من ليلى وقالت فى تظرف وبشاشة :

ـ نهارك سعيد يا أمورة . .

ـ نهارك سعيد . .

ـ كيف حالك يا حبيبتى ؟ . .

ـ بخير ، الحمد لله . .

ــ إن شكرى باك شديد الاهتمام باك وقد أوصانى أن أحضر لاك كل ما تطلبين فكونى مطمئنة هادئة البال . .

فقالت ليلى وهى دهشة متعجبة :

ــ أشكرك . .

فقالت رئيسة الحراس وهى تقدم إليها لفافة :

ــ طبعاً طعامنا لا يروقاك ، يمكنك أن تستعيضى عنه بهذه الفطائر . .

ولقيت ليلى فى الأيام التالية ممن حولها تكريماً وحفاوة منقطعة النظير ولا سيما رئيسة الحراس فقد كانت شديدة الاهتمام بها وكثيراً ما كانت تحولها إلى مستشفى السجن ليتيسر لشكرى مقابلتها كلما أراد . .

الفصل الخامس عشر

وسارت أمور ليلى بعد ذلك على ما يرام وطابت فى السجن إقامتها ، وأخذ شكرى يواليها بزوراته وفى أول زيارة له قال لها ملاطفاً :

ــ ليلى ، كيف أنت ؟ لقد حضرت لأطمئن عليك .

فقالت فى هدوء وهى تتحاشى النظر إليه :

ــ أشكرك . .

فقال وهو يتأمل ملامحها فى إمعان :

ــ لقد كنت قلقاً من أجلك ولذلك جئت لأرى كيف حالك . .

وكانت رئيسة الحراس تقف إلى جوارها فقالت فى أدب جم :

ــ كن مطمئناً يا سعادة البيه ، إننا جميعاً نحبها ولا ندخر وسعاً فى إسعادها . .

فأجابها قائلا :

ــ حسن ، حسن جداً ، إنها خدمة جليلة تسدينها إلينا . .

ثم التفت إلى ليلى وقال :

ــ أينقصاك شيء يا ليلى ؟ .

فقالت بعد تردد :

ــ كلا ، لست بحاجة إلى شيء ، كل ما يشقينى هو أمر أبى وزوج خالتى . .

فأجابها على الفور :

ــ أمدا كل ما يشقيك ، كونى مطمئنة ، سوف تسمعين عنهما أخباراً سارة قريباً جدا .

ثم نظر إلى رئيسة الحراس وقال لها وهو يدس فى يدها ورقة مالية :

ــ أرجو أن تعنى بشئون ليلى كل عناية . .

فلمعت عيناها سروراً وقالت وهى تخفى الورقة فى صدرها :

ــ لا تقلق من ناحيتها أبداً ، إن لليلى فى قلبى مثل مكانة ابنتى .

وبعد حديث قصير حيا ليلى تحية رقيقة وانصرف مشرق الوجه فتى الخطوات .

وعندما حضر فى الزيارة الثانية زف إليها بشرى إطلاق سراح والدها وزوج خالتها ورد حقوقهما إليهما كاملة وبعد أن شكرته قال لها :

— إنى أعلم أنك لا تحبيننى ولكنى واثق من أنك ستحبيننى بمرور الزمن وخاصة بعد أن تخرجى وترى بنفسك القصر العظيم الذى أعددته لإقامتك . .

وسكت لحظة ثم أنشأ يقول :

— إنى أنتظر خروجك بفارغ الصبر يا ليلى ، وأؤكد لك أننى أفكر فيك دائماً لأننى لا أستطيع الهرب من صورتك مهما حاولت .

نأطرقت واختلجت شفتاها دون كلام ومرت ببالها فى ذلك الوقت صور مأساتها الدامية فارتعد جسدها وانقبض صدرها وشردت خواطرها ولكنها استطاعت أن تخفى مشاعرها الحقيقية عنه ، وعندما انصرف وانفردت بنفسها تبينت أنها لا تستطيع أن تلائم بين نفسها وبين ما يراد بها وإنه خير لها أن تفى للشرف والكرامة والواجب والضمير وإن ضحت فى سبيل ذلك كله براحتها وبأهلها بل وبحياتها .

وكانت تنام بجوارها فى العنبر سجينة متقدمة السن وديعة طيبة مثلها ، وكانت كلتاهما محزونتين مهمومتين وكانتا تتحدثان وتتسامران كلما آوتا إلى مضجعهما فى مآسى الحياة وخطوبها ، واستتبع وثوق المرأة فى ليلى وثوق ليلى بها ، فقصت عليها حقائق

محنتها المؤسية وتفاصيل حياتها من بدايتها إلى نهايتها ، وكانت زميلتها امرأة راجحة العقل كثيرة التجارب فلما وقفت على قصتها مع شكرى صارحتها بأنها ارتكبت غلطة كبيرة بذهابها إليه فى شركته بمفردها وأنها تخطئ خطيئة لا يكفرها استغفار ولا تمحوها توبة إذا أذعنت لإرادته وأجابته إلى دعوته بعد خروجها من السجن ، وعندما سمعت ليلى هذا الكلام نالتها هزة نفسية عنيفة وقالت لها :

ــ وماذا أصنع ، إننى فتاة ضعيفة وهو رجل قوى يناصره رجال أقوياء فى الحكومة ويكفى دليلا على نفوذه إفراج الحكومة عن والدى وزوج خالتى نتيجة لتدخله . .

فقالت المرأة فى صوت هادئ رزين :

ــ لا داعى للقلق الآن ، أنت هنا فى أمان ولكن يحسن أن تجامليه كلما حضر حتى لا يرتاب فى أمرك . .

ــ حسناً ، وماذا أفعل بعد خروجى من هنا . .

ــ عليك أن تختفى فى أى مكان إلى أن يحدث الله أمراً . .

ــ وماذا تنتظرين أن يحدث ولسنا فى عصر المعجزات ؟ . .

فتنهدت المرأة وقالت :

ــ من يدرى يا بنيتى ، إن الله لا يمكن أن يرضى عن

هذه الحال . .

وسكتت لحظة ثم استطردت :

— ويخلق ما لا تعلمون . .

وفى موعد الزيارة التالية حضر أبوها وصابر لزيارتها ولما أقبلت ليلى وأطلت عليهما من وراء الحاجز سارع أبوها إليها وراح يواسيها بعبارات التشجيع المألوفة التى ملت سماعها من الناس فى مواعيد الزيارة ، أما صابر فبعد أن حياها انزوى بعيداً وهو صامت خافض البصر ثم حنا رأسه وانخرط فى بكاء وشهيق فنظرت إليه ليلى نظرة عطف وإشفاق لا تخلو من تأثر ثم عادت إلى أبيها تستمع إلى حديثه عن شكرى باك وكرمه حتى انتهى موعد الزيارة .

ولما انصرفا عادت ليلى من حيث أتت ثم قصدت بعد وقت إلى مكان رفيقتها العجوز وقصت عليها قصة صابر وطيبة قلبه وحقيقة مشاعره فقالت لها :

— وأنت ؟ ما هو شعورك نحوه . .

— إننى أرثى لحاله وأشفق عليه من كل قلبى ولكنى أرغب فى نصيحة تسدينها إلى . .

— ما هى ؟ . . .

ـــ إذا طلب صابر الزواج منى بعد إطلاق سراحى وانفصالى عن زوجى نهائيا فماذا ترين أن يكون جوابى . .

فسكتت المرأة قليلا ثم قالت :

ـــ ألم تطرحى على نفسك هذا السؤال ؟

ـــ سألت نفسى أحياناً . .

ـــ وماذا كان الجواب ؟ . .

ـــ إن قلبى ما زال متعلقاً بزوجى رغم يأسى من عودته ورغم أنه عاملنى تلك المعاملة الفظيعة التى لم أكن أتوقعها منه .

ـــ ما دمت تحبين زوجك إلى هذا الحد فنصيحتى لك أن تتركى الأمر للزمن ، لا تتعجلى فما زال بينك وبين مغادرة السجن سنوات قد يحدث خلالها ما ليس فى الحسبان ، أما فيما يتعلق بزوجك فلست على يقين من حقيقة موقفه ولكنى أعتقد أن رجلا هذه صفاته ربما خالجته مشاعر جديدة بعد افتراقك عنه وربما أدرك أنه أخطأ حين حكم على فعلك لا على نيتك . .

فتنهدت ليلى من أعماق قلبها وقالت :

ـــ آه لو أستطيع أن أسترد قلبه وأجعله يحبنى كما أحبه ، إذا استطاع أن يغفر لى فسيطيب لى أن أفر معه إلى أقصى

الأرض واو أدى ذلك إلى هلاكى . .

فأخذت المرأة يدها بين يديها وجعلت تلاطفها وهى تؤسيها ثم قالت :

ـ ها أطيب قلبك ، ثقى أن الله لن ينساك وسوف يغمرك بالعزيز من رضاه وفضله . .

وتعاقبت شهور وأعوام لم يحدث فيها شىء غير مألوف وقبيل انتهاء مدة السجن تطورت الأمور تطوراً عجيباً لم يكن متوقعاً ففى ذات يوم وقعت نظرات ليلى على رسالة مطوية مخبأة فى رغيف قدمته لها امرأة مجهولة ، فما كان منها إلا أن أخذت الرسالة ودستها فى صدرها وانسلت إلى ركن بعيد ولما اطمأنت إلى عدم وجود من يراقبها أخرجت الرسالة ثم فضتها وطفقت تقرأ :

« زوجتى الحبيبة

أستسمحك العذر من تقصيرى فى الكتابة إليك أو الاتصال بك ، كثيراً ما هممت بأن أفعل ذلك ولكنى كنت أحجم خشية أن ينالك سوء من جراء اتصالى بك ، على أننى قررت أخيراً أن أبعث إليك بهذه الرسالة بطريقة خفية لا يمكن أن يفطن إليها أحد ، لا أريد أن أتحدث إليك طويلا فى شأنى ولكن يكفى أن أقول لك إننى لست منك ببعيد ، وأريد بعد ذلك

أن أظهرك على حقيقة تكشفت لى وهى أن حسين شكرى هو الذى لفق لى تهمة المؤامرة ليبعدنى عنك وعن وطنى وساعده على ذلك طغمة مجرمة من ذوى النفوذ ، لقد استهتر حسين شكرى وأعوانه من الإقطاعيين وتجار السياسة وأعوان الاستعمار بكل القيم وعاثوا فى الأرض فساداً وأشاعوا فى بلادنا جواً ماوثاً استشعر له بالخجل كل مصرى أبى حر ، ولكنهم لن ينالوا إلا الخزى والفشل والعار ، وسيتساقطون كما تتساقط أوراق الخريف عندما يهب الشعب مارداً جباراً ليقتص منهم ويحاسبهم على كل ما ارتكبوه من ذنوب فى حق بلادهم وحق مواطنيهم الشرفاء الأحرار ، إن هناك عيوناً يقظة ساهرة تسجل على الظالمين ظلمهم ، وعلى المفسدين فسادهم حتى إذا ما حان الوقت انطلقت قوة النضال التى تكمن فى الصدور لتطيح بجميع أولئك الذين كفروا بالحق والعدل والوطنية والفضيلة ، ولطخوا سمعة بلادنا بوحل الغدر والخيانة والفساد ، فترقبى الفجر الجديد وثقى أن انتظارك لن يطول . وأرجو أن تأذنى لى بعد ذلك أن أخصك بهذه الأسطر ، لقد قضيت بعد فراقك أياماً قاتمة مظلمة بشعة ولم يكن مرجع ذلك إلى ما لقيته من مكائد وأهوال وإنما كان مرده إلى شعورى بأننى ظلمتك ولم أرك

على حقيقتك ، وقد رأيتك على حقيقتك بعد رحيلك مباشرة وهممت بأن ألحق بك لأعتذر إليك وأسعد بجوارك ولكن المؤامرة التي دبرها شكرى وأعوانه حالت بيني وبين ما كنت أريد ، فأتوسل إليك يا زوجتي الحبيبة أن تغفري لى وتعفى عنى ، وأن تبتهلى إلى الله فى كل يوم ، وفى كل ساعة ، وفى كل لحظة أن يبارك حبنا وأن يكون عوناً للأحرار على اجتياز المرحلة الباقية بسلام » زوجك المخلص الوفى

نبيه

وبعد تلاوة الرسالة وقفت ليلى فى مكانها كالمأخوذة ثم جعلت تتلوها تبدئ فيها وتعيد وكلما أكملتها سرحت مفكرة تحاول اكتناه مدلولها وتفسير ما خفى عليها من معانيها . وقضت يومها حائرة يكاد حبها للمعرفة يقهر كل إحساس آخر فى نفسها ويصرفها إلا عن التفكير فى أمر هذه القوة التى ستنطلق عما قريب لتحرر البلاد من الطغاة الظالمين وعلى رأسهم منبع الشر فى مأساة حياتها حسين شكرى . وقضت هزيعاً من الليل وهى غارقة فى أحلامها ، وكانت تتراءى لها فى هذه الأحلام صورة زوجها فى أشكال متعددة ولكن وجهه لم يكن يتغير، ذلك الوجه الهادئ القسمات الذى يحمل طابع النبل والرجولة الحقة .

ولم يتطل ارتقاب ليلى فما هى إلا أشهر قلائل حتى دوى الرعد وخرج البركان من أعماق الأرض جباراً رهيباً فأطاح بحصون الرجعية والاستعمار والإقطاع فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وجرف فى طريقه كل شىء تافه وفاسد وقبيح ، وفى جارف العاصفة حاول شكرى الهرب بالطائرة مع نفر من أعداء الشعب ولكن الطائرة ما كادت ترتفع فى الجو حتى أجبرت على الهبوط وقبض على كل من فيها من حكام وسماسرة وذئاب وأذناب وسيقوا إلى السجن لمحاكمتهم على ما اقترفوه من جرائم وآثام .

وفى نفس الوقت كانت ليلى قد أتمت مدة العقوبة وكان خبر الثورة قد أعلن سريعاً وماج السجن الذى كان ساكناً هادئاً بصيحات الفرح والابتهاج ، وعندما حان وقت انصرافها ودعت زميلتها العجوز وذهبت إلى المحافظة لإتمام إجراءات الإفراج عنها .

وكان فى انتظارها عند خروجها من المحافظة زوجها فما إن وقع بصره عليها حتى أسرع إليها مهللا وأخذها بيده وجذبها فى نطاق ذراعه ومشى بها إلى سيارة كانت فى انتظاره ، ولما انطلقت بهما السيارة قال وهو يشدد ضمها إلى جانبه فى شوق وهيام :

ـ السعادة أخيراً يا ليلى ، إن الدنيا بأسرها لا تساوى بدونك شيئاً . .

فحدقت فيه مشغوفة ثم ارتمت بين ذراعيه وقد وصلت بينهما قبلة حارة بعيدة المدى .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

مرآة الإســلام

للدكتور طه حسين

لقد كان الإسلام ولا يزال دين الحنيفية السمحة والفطرة السليمة أتى به الرسول الكريم من عند الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد .

ولطالما انبرت الأقلام لتصور سماحة ذلك الدين وروعة الحق فيه وأثره فى النفوس ؛ واليوم ينبرى له قلم عميد الأدب العربى بما عرف عنه من مقدرة وكفاية فيعكس فى كتابه هذا أشعة الإسلام نيرة ملألئة بكل ما حوت من حق وخير وجمال .

٣٢٠ صفحة . قطع متوسط

الثمن ٤٠ قرشاً

